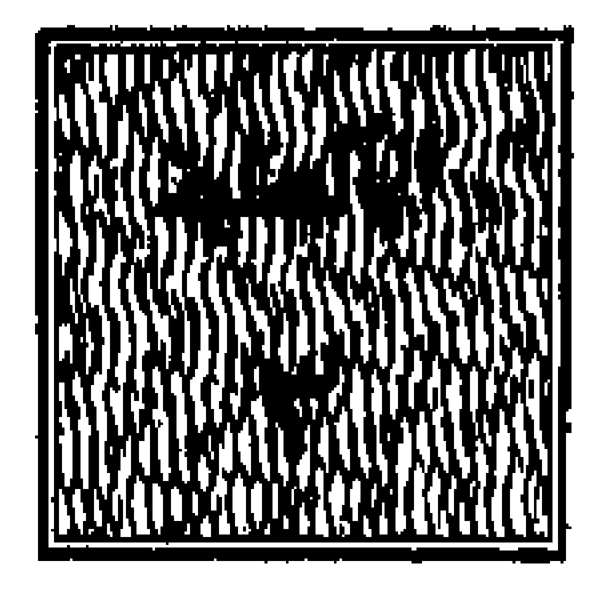
المكتبة الجامعية
٤

انيس فريحة

نظريات في اللغة



دار الكتاب اللبناني بيروت

سلسلة الألسنية

تصدر بإشراف

الدكتور أنيس فريحة   الدكتور ريمون طحان

الألسنية

٣

المكتبة الجامعية

نظريات في اللغة

تأليف

انيس فريحة

أستاذ اللغات السامية في الجامعة الاميركية سابقاً
أحد أساتذة علوم اللغة والساميات في كلية التربية
الجامعة اللبنانية

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان
ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبنان)
هاتف - ٢٥٧٤٧٠ - ٢٣٧٥٣٧
TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT

الطبعة الثانيـــة
١٩٨١

نظريات في اللغة

* * *

في اللغة عامة

ما هي اللغـــة ؟

لن نجيب على هذا السؤال ، الذي يبدو بسيطاً ، بتعريف جامع مانع كأن نقول : اللغة مجموعة اصوات للتعبير عن الفكر أو أداة للتفاهم أو وسيلة لنقل المعاني ، لأن صوغ تعريف علمي شامل للغة ليس بالأمر اليسير كما قد يتبادر الى الذهن . غير أننا نعد القارىء الذي اعتاد الاحاطة بالأمور عن طريق التعاريف القصيرة اننا سنحاول في آخر هذا الفصل تعريف اللغة على الطريقة التي ألفها .

وقد يبدو ترددنا في تعريف اللغة غريباً ، لأن اللغة من الأمور الطبيعية المألوفة التي يمارسها جميع البشر على اختلاف أجناسهم عفوياً . فانها لا تتطلب جهداً ولا تفكيراً . يستعملها الولد بيسر ، وهي عنده عملية بسيطة كالمشي والأكل والشرب والنوم وغسل اليدين قبل تناول الطعام . وها نحن نتكلم في كل حالة من حالات الحياة وفي كل ساعة من ساعات الليل والنهار سواء

كنا نائمين أو حالمين أو هاذين . فلذا نقول ان تعريفها أمر شاق .

خذ هذا التعريف المكرر : « اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر » وحاول تطبيقه على واقع اللغة ثم سل نفسك : هل صحيح أن اللغة مجموعة أصوات للتعبير عن الفكر ، هل اللغة مجموعة أصوات ؟ هل فكرة « البيت » قائمة في الأصوات التي تتألف منها اللفظة ؟ بكلام آخر ما علاقة أصوات حروف الكلمة بمعناها ؟ أليس المعنى قائماً في الاختبار لا في الصوت ؟ عندما نسمع لفظة « بيت » أليس الاختبار في حنايا العقل الذي يترجم الصوت الى معنى ؟ ولك أن تسأل هل كل صوت هو « لغوي »؟ كلا فان هناك أصواتاً عديدة لا تدخل في نطاق الأصوات اللغوية كالأصوات الطبيعية والحيوانية وكبعض الأصوات التي نخرجها من بين الأسنان ، او من الخيشوم ، أو من أقصى الحلق . أو كالأصوات التي نحدثها بالتواءات مختلفة للسان ؛ جميع هذه الأصوات لا تدخل في نظام الأصوات اللغوية . اذن علينا أن نحدد كلمة الصوت اللغوي . وعلماء اللغة ، رغبة منهم في الدقة العلمية ، يطلقون على أصوات اللغة مصطلحاً علمياً : فونيم (وجمعها فونيمات Phoneme) أي الوحدة الصوتية للغـــة. ويعنون بالفونيمات مجموعة الوحدات الصوتية التي تشكل النظام الصوتي للغة . وتتمثل الفونيمات عادة بحروف الهجاء ولكن حذار من أن نعتقد أن عدد الفونيمات في اللغة ينبغي

أن يطابق عدد حروف الهجاء في تلك اللغة . كلا ، فقد يكون للغة ما ٢٦ او ٢٧ أو ٢٨ حرفاً هجائياً ولكننا اذا أحصينا عدد فونيمات هذه اللغة لوجدنا أنها تربو على عدد حروف الهجاء ونمثل لك على هذا بفونيم « ث» في اللغة الانكليزية فانه عنصر من عناصر اللغة كما في thin . ولكن هذا الفونيم لا رمز له (أي لا حرف له) بل يرمزون اليه بحرفي th . وقل هذا في فونيم « ذ » فانه عنصر من عناصر الانكليزية كما في لفظة mother ولكن فونيم « ذ » لا رمز له (لا حرف له) بل يرمزون اليه بحروف أخرى .

وفضلا عن هذا فان علماء الفونتيك يقولون لنا ان للفونيم الواحد اكثر من لفظ واحد . قد يكون له ثلاثة ألفاظ أو أربعة. فان فونيم p في كلمة speak هو غيره في اللفظ في كلمة park . وقل هذا في فونيم t فانه في sting غيره في teem . قد لا تستطيع اذني أو اذنك ان تميز بين لفظ وآخر للفونيم الواحد ولكن الالة المسجلة والفونتيكي المجرب يستطيعان ذلك .

وما قولك في هذه الفونيمات: a e i o ؟ ألا تختلف لفظاً تبعاً لوقوعها في كلمات مختلفة ؟ هل الفونيم a في father وفي fat وفي female واحد في اللفظ ؟

ثم اعتبر الشق الثاني من التعريف : « اللغة اداة للتعبير عن الفكر » . يقول لنا بعض البسيكولوجيين ان اللغة هي الفكر

ذاته ، أو هي أساس الفكر وطريق الانسان للفكر . ويؤكد بعضهم اننا لا نستطيع التفكير بدون كلمات . فاذا قبلنا هذا التحديد — بانها أداة للفكر — نكون قد فصلنا الفكر عن أداة التعبير عن الفكر ، وهذا مما لا يقبل به البعض . ولنخل عنك هذه القضية الفلسفية البسيكولوجية ولنعد الى صعيد ادنى ونسأل : اذا قبلنا هذا التحديد ألا نكون قد عظمنا ملايين الناس الذين يتكلمون ولكنهم لا يعبرون عن الفكر ؟ ألا نكون قد حقرنا الفكر باعتبارنا كل ثرثرة تعبيراً عن الفكر ؟ عندما يغضب أحدنا ، أو عندما تنهال من فيه الشتائم والمسبات ، أو عندما يحيي بعضنا بعضاً ، أو عندما نتكلم لانفسنا ونحن سائرون في الطريق أو مستلقون على فراش ، هل في هذه المواقف ، والشبيهة بها ، تعبير عن الفكر ؟ ثم أننا أحياناً نرغب في التعمية والتمويه والاخفاء وأداتنا في ذلك اللغة التي يقولون لنا أنها لنقل الفكر أو للتعبير عنه !

لا ننكر ان اللغة اداة للتعبير عن الفكر أحياناً ، فالمحاضر يعبر عن أفكاره بوساطة اللغة ، والمعلم في مدرسته ، والعالم في مختبره ، والنائب في برلمانه ، والصحافي في مكتبه ، جميع هؤلاء يعبرون عن الفكر باللغة . ولكن حصر اللغة بانها اداة للتعبير عن الفكر أمر بعيد عن الواقع .

وكذلك قد تكون اللغة تعبيراً عن شعور وعاطفة . وقد يكون منشؤها العاطفة والشعور لا الفكر . اللغة للغناء ، للشعر ،

للاقاصيص ، للاساطير ، للخرافات ، فهي بهجة ومتعة ، وهي متنفس عن حزن وألم . واني أعجب من الرجـــل القاسي الذي يحكم على المرأة بانها ثرثارة . المرأة مخلوق طبيعي وتشعر أن هذه الهبة العظيمة ــ اللغة ــ للثرثرة وللكلام في غير المواقف الرسمية . اللغة عندها شيء مستحب ، والثرثرة بهجة ومتعة . وفي هذا كثير من الصحة .

الواقع أن اللغة أكثر من مجموعة أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة للفكر أو تعبيراً عن عاطفة . اللغة جزء من كياننا البسيكولوجي الروحي ، وهي عمليـــة فيزيائية اجتماعيـــة بسيكولوجية على غاية من التعقيد ، وتتناول أربعة أمور أساسية لتمام العملية المعقدة :

ا ــ متكلم

ب ــ مخاطب

ج ــ أشياء أو فكر يتكلم عنها

د ــ كلمات أو مفردات (أو اشارات ملامحية أو يدوية) وهي مجموعة فونيمات لها في الذهن صور معينة ، أي معان .

ولايضاح هذه العملية المعقدة نأخذ مثلا بسيطاً لا يتبادر إلى اذهاننـــا أنه على شيء من التعقيد . تصور رجلاً يمشي في حقل مع ولده الصغير . يرى الولد شجرة تفاح عليها ثمر شهي

فيقول لوالده : « اقطف لي يا بابا تفاحة . » وقد ينزل الوالد عند طلب ولده ، فيتناول تفاحة ، وقد لا ينزل عند طلبه فيقول « لا التفاح ليس لنا ، للتفاح أصحاب » . فلنحلل هذه العملية الفيزيائية الاجتماعية البسيكولوجية .

تبدأ العملية بالصور المرئية ، بعالم الأشياء المحيط بنا ، وهو العامل المؤثر ، فيشتهي الولد التفاحة وتستحيل الصورة الذهنية الى صورة كلامية تعبيرية : « اقطف لي يا بابا تفاحة » . كيف تحولت الصورة الذهنية الى صورة صوتية ؟ أين كانت هذه الكلمات في دماغ الولد ؟ ما العلاقة بين العامل المؤثر وبين النطق ؟ ماذا جرى ؟ وكيف تم ؟ ثم ان هـذه الاصوات التي فاه بها الولد انتقلت الى اذن الأب بوساطة تموجات في الهواء اولا ثم الى دماغه ثانياً . كيف ؟ ماذا كان رد الفعل ؟ كيف فهم المخاطَب المخاطيب ؟ ماذا دار في دماغ الوالد عند سماع الفونيمـات ، وهـل المعنى في الصـوت ام أن المعنى قائم في الاختبار ؟ أي ما العلاقة بين الاصـوات والمعنى ؟ وكيف توصل الى حكم اولا في العقل ثم استحال الحكم الى أصوات تعبيرية فقال له « نعم » او « لا » . « التفـاح ليس لنا . » ؟

هنا يتدخل البسيكولوجي ويقول : درس اللغة ليس من اختصاص علماء اللغة بل فرع من فروع علم البسيكولوجيا.

اللغة «تصرف رمزي Symbolic behaviour ولا تفسر الا على اساس المؤثر ورد الفعل . هاتان العبارتان : « اقطف لي تفاحة » و « التفاح ليس لنا » رد فعل بسيكولوجي ، ولا معنى لهاتين العبارتين الا اذا فهمنا الظروف المحيطة بالوضع الذي نطق بهما. ثم ان البسيكولوجيين أنفسهم ، اذا سلمنا أن درس اللغة من اختصاصهم ، يختلفون كثيراً فيما بينهم في تفسير هذه الظواهر. فقد كان بعضهم الى زمن قصير يعتقد بالتعليل النفسي أو الروحي ، أي أن هناك قوة روحية أو عقلية أو نفسية غير مادية تحرك الانسان . ولكن جلهم الآن يعللون هـــذه الظواهر البسيكولوجية على انها عمليات فيزيائية ميكانيكية : مؤثر ورد فعل وتلاؤم وتصرف رمزي .

يرى القارىء مما تقدم ان اللغة ليست ظاهرة بسيطة بل يتطلب فهمها فهماً صحيحاً اثارة اسئلة خطيرة وعلى كثير من التعقيد والغموض . أما نحن فيهمنا من الأمر تقرير الواقع : اللغة ظاهرة اجتماعية بسيكولوجية قبل ان تكون كلمات واصواتاً وصرفاً ونحواً . وهذا أمر هام جداً بالنسبة الينا نحن العرب ، فاللغة عندنا اداة مركبة من أصوات فكلمات فتراكيب ، بينما هي في الواقع الفكر ذاته (عند بعضهم) او طريق الفكر لادراك الوجود (عند البعض الآخر) ولا كيان للغة بمعزل عن المجتمع . فان سويت ودي صوصير السويسري يقولان ان لا كيان للغة الا في ذهن الافراد .

بعد هذا الاسهاب للقارىء أن يطالبنا بتعريف اللغة فنقول :

اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية ثقافية مكتسبة(١) ، لا صفة بيولوجية(٢) ملازمة للفرد . تتألف من مجموعة رموز صوتية لغوية اكتسبت عن طريق الاختيار معاني مقررة في الذهن وبهذا النظام الرمزي الصوتي تستطيع جماعة ما ان تتفاهم وتتفاعل . وباللغة فقط صار الانسان انساناً ، وباللغة فقط تطورت الحضارة وتقدم العمران وبلغ العقل الانساني ذروته . فدرس اللغة درساً علمياً فلسفياً درس في الانسان وفكره .

* * *

---

(١) اذا فصم طفل عن المجتمع فانه لن يتكلم بل ينطق باصوات غير لغوية كسائر الحيوانات . وقد يكون لها معان . وكذلك اذا نشأ طفل في محيط غير محيطه فانه يكتسب لغة القوم الذين يعايشهم .

(٢) ان اعضاء النطق كالحلق واللسان والرئتين والحنجرة ، وغيرها كثير ليست للنطق اولا اي ان وظيفتها الأولى هي غير النطق .

كيف نشأت اللغة ؟

لا نعلم على وجه التحقيق . أصل اللغة وثيق الاتصال باصل الانسان ذاته وبتطور جسمه وعقله . اذن قضية اصل اللغة ليست قضية لغوية بحتة، ولا تدخل في نطاق علم اللغة Linguistics بل في نطاق البسيكولوجيا والانثروبولوجيا والفلسفة .

ان معرفتنا بتاريخ الانسان قبل التاريخ المدون قد ازدادت في القرن الاخير . ولكن رغم تقدم معارفنا في هذا الحقل فان اصل الانسان ونشأته من حيوان ابكم الى حيوان ناطق ، من حيوان لا يعقل الى حيوان عاقل ، لا يزال مكتنفاً بحجب من الاسرار ولكي نهتك هذه الحجب علينا ان نرجع الى عهود سحيقة في القدم لا نعلم عنها شيئاً علماً يقينياً ، والعلم لا يعترف بشيء اسمه حدس او خيال ، ولا يأخذ بشيء اسمه غيبيات ، الا اذا كانت افتراضات قيد البرهان .

ولكن أصل الانسان ونشأة لغته أمر يثير الخيال ويستأنف الى العقل . ونعتقد أن أصل اللغة من أقدم المشاكل الفكرية التي جابهت عقل الانسان . فان كاتب قصة الخليقة عزاها الى الله .

الله علم آدم الكلام . وقد انقسم العرب الى قسمين ازاء هذه المشكلة (١) . فقالت جماعة ان اللغة توقيفية، اي ان الله علمها الانسان ، وقالت جماعة انها اصطلاحية توافقية . وكان هم علماء اللغة ، منذ مطلع القرن التاسع عشر الى زمن قريب منا ، ان يتوصلوا الى حل هذه المشكلة . ولكنهم كانوا يدورون في حلقة مفرغة.وكثر القول فيها الى حد جعل الجمعية اللغوية الفرنسية La Société de Linguistique تمنع بقانون القاء محاضرات في هذا الموضوع ، لأن هذه النظريات ـ وسنذكر لك نتفاً منها ـ لا تفسر أصل اللغة . وقد كانت الجمعية اللغوية هذه على شيء من الحق في منع الموضوع ، لانه ، كما ذكرنا آنفاً ، لا يدخل في نطاق علم اللغة بل هو اقرب الى الحدس والخيال . يجب ان يبحث عن أصل اللغة في نشوء التصرف او السلوك الرمزي Symbolic behaviour

ولكن من قبيل العلم بالشيء لا الأخذ به يحسن بنا ان نأتي على ذكر بعض هذه النظريات ، ان لم يكن لغرض سوى ان ندلل بأن اللغة تنشأ من أسفل وترتقي الى أعلى ولا تهبط من عل إلى أسفل . منها :

---

(١) ترى نموذجاً من هذا البحث في ابن جني (ابو الفتح عثمان) في كتابه الخصائص باب القول على اصل اللغة الهام هي ام اصطلاح . ص ٣٩ (مطبعة الهلال بالفجاله ١٣٢١) وعنه اخذ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي في المزهر في علوم اللغة وانواعها ص ١٧ ـ ٢٠ دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

١ — نظرية البو — وو Bow - waw (١)

ومفادها ان أصل اللغة محاكاة أصوات طبيعية . وقد أشار العرب الى هذه النظرية بطريقة غير مباشرة عندما تكلموا في «حكاية صوت(٢) » وقد ادى الى وضع هذه النظرية ورود كلمات عديدة ، في كل لغة ، لفظها يدل على معناها مثل الرنين والغنة والزقزقة والقهقهة والحفيف والخرير والخشخشة والطقطقة . واننا نرى شيئاً من صدق هذه النظرية متمثلاً في لفظة Cuckoo وهي اسم طائر سمي بالصوت الذي يحدثه . وقل هذا في لفظة « مو » فانها تعني في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية هرة . وظاهر ان التوافق في التسمية عند المصريين والصينيين يرجع الى ان الهرة سميت بالصوت الذي تحدثه .

---

(١) الكتب والمقالات التي تبحث اصل اللغة عديدة جداً نكتفي بذكر مقالين جامعين يلخصان للقارىء الذي لا يهمه التبسط في الموضوع اهم ما قدم من نظريات . المقال الأول تجده في :

W.B. Pillsbury and C.L. Meader : The Psychology of Language, PP 112 – 128. New York and London 1928.

والمقال الثاني في :

Otto Jesperson : Language,
Its Nature Development and Origin, PP 412 – 442.
Allen and Unwin, London 1922.

(٢) ويشير اليها ابن جني في كتابه الخصائص المذكور آنفاً في فصل يعنونه « احساس الالفاظ اشباه المعاني . ص ٤٤٥ » وعنه نقل السيوطي في كتابه المزهر المذكور آنفاً ص ٤٨ .

ولكن الكلمات التي يمكن ان تفسر على مبدأ نظرية البو–وو قليلة جداً . وفضلاً عن هذا فان النظرية تعجز عن ان تفسر لنا كيف استغل مبدأ « حكاية الصوت » في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أية علاقة بين معناها وصوتها . ما العلاقة بين لفظة ابريق ومعناها ؟ وما العلاقة بين لفظة المنضدة ومعناها ؟ ما العلاقة بين لفظ الكتاب ومعناه ؟ ليس هناك من علاقة ظاهرة انما العلاقة بسيكولوجية ، أي من نوع قرن الاصوات بصور قائمة في العقل .

ب – نظرية الأصوات التعجبية العاطفية **Interjections**

وتعرف بنظرية Pooh - pooh . ومفادها ان الكلمات الأولى التي نطق بها الانسان كانت اصواتاً تعجبية عاطفية صادرة عن دهشة او فرح او وجع او حزن او استغراب أو تقزز او تأفف. ومثال هذا لفظة – تأفف – التي استعملناها نحن . عندما يتأفف الالماني يقول Pfui وعندما نتأفف نحن نقول – اف او اوف – وعندما نتحسر او نتلهف نقول : « وي » وهي لفظة ترد في جميع اللغات السامية . ويتبعها عادة حرف الجر « ل » فيقال « وي ل » وعلى مر الزمن امتزجت الكلمتان وصارتا كلمة واحدة « ويل » كما امتزج اسم الموصول « ما » مع حرف الجر « ل » فاصبح « مال » . وفي الانكليزية القديمة لفظة تدل على التحسر والتلهف شبيهة بلفظة « ويل » وهي Wa - la

ان ما قلناه عن النظرية الأولى ينطبق على النظرية هذه . لأنه اذا استطاعت نظرية كهذه ان تفسر بضعة الفاظ فانها تعجز عن تفسير الوف من الألفاظ التي لا نرى كيف يمكن ان تكون في اساسها تعجبية عاطفية او مشتقة من عناصر تعجبية عاطفية . ما علاقة لفظ الحب والبغض والولاء والفيل والحصان والانسان بالاصوات التعجبية العاطفية ؟ ليس هنالك من علاقة ظاهرة .

ج – نظرية محاكاة الاصوات معانيها Ding - dong

وواضعها ماكس ميلر اللغوي الشهير(١) . ومفادها ان جرس الكلمة يدل على معناها . وهي لا تختلف عن نظرية البو – بو . وقد اشار اليها العرب ايضاً بطريقة غير مباشرة عندما اشاروا الى ان للحروف معاني (٢). فحرف الحاء يدل على الانبساط والسعة والراحة ، وحرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن كما في غم وغيم وغبن وغبطة . ولكن كيف نفسر لفظة غني وغنج وغلام ؟

مما لا شك فيه انك اذا نظرت في كلمات عديدة يشترك فيها

---

(١) F. Max Mueller : Lectures on the Science of Language, London 1864.

(٢) والأفضل ان ينظر في المقطع ، لا في الحرف ، كما فعل الأب ا. س . مرمرجي في كتابيه : معجميات عربية – سامية – جونية ١٩٥٠ – والثنائية .

فونيم واحد تجد ان معانيها متقاربة . ولكن ان نرد معاني الوف الألفاظ الى ٣٠ او ٣٥ فونيماً او وحدات صوتية فاننا لا نفسر أصل اللغة بل نزيد في غموض المشكلة . اذ ذلك ان تسأل كيف تطورت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكل النظام الصوتي للغة الى معان لا حصر لها ؟ وهل المفردات العربية المدونة في « لسان العرب » مشتقة من ٢٨ فونيماً ؟ هذه النظرية لا تفسر أصل اللغة ، بل تزيدها تعقيداً .

د — نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية

وتعرف بنظرية Yô - hê - hô وهي المقاطع الطبيعية التي يتفوه بها الانسان عندما يستعمل اعضاء جسمه في العمل اليدوي . فكأن هذه الأصوات التي يخرجها عفوياً عند القيام بعمل عضلي عنيف تخفف شيئاً من حدة العمل . ومن هذا القبيل اغنية المجذفين على نهر الفولغا . وانت اذا وقفت الى جانب عامل يقطع صخراً او شجرة ، او اذا راقبت حداداً او مجذفاً أو رجلا يرفع حملا فانك تسمع اصواتاً ترافق حركاته . وفي الحداء وفي الرقص الايقاعي تسمع اصواتاً تتلاءم والحركات الجسمية .

ولكن هذه النظرية ايضاً تفسر جزءاً يسيراً من اللغة ، ويبقى السر العميق : كيف نشأت اللغة من هذه الأصوات العفوية التعبيرية التي ترافق حركات الجسم ؟ ما علاقة لفظ الأب والأم

والحنان والحمل والجمال وهذه الأصوات التي هي استجابة للحركات الجسمية ؟ ليس هنالك من علاقة ظاهرة .

هـ – نظرية الاشارات الصوتية

وللسر ريشارد باجت Paget(١) نظرية جديدة لم تلاق قبولا، ومفادها ان الكلمات هي اشارات صوتية Verbal gestures . يقول باجت ان الانسان القديم كان يتفاهم بالاشارة – الاشارة باليد والاشارة بتقلص عضلات الوجه – ولكن عندما صار يستخدم يديه لامور أخرى أصبح يشير الى الأشياء باصوات . ومما ساعد الانسان على ترك الاشارة اليدوية والملامحية والاستعاضة عنها باشارة صوتية هو ظلام الكهف ليلاً . ففي النهار يرى الانسان صاحبه ويستطيع ان يقوم باشارات يدوية ترى ، ولكن كيف يتم التفاهم في الظلام ؟ عند ذاك بدأ الانسان بالتعبير عن الأشياء باصوات ، وهذه الأصوات في الفم تحاكي الأشياء المعبر عنها. وتعرف نظريته بنظرية ta - ta أي أنك عوضاً عن ان تشير الى شيء بيدك تشير اليه بلسانك فتقول ta - ta

ويستطيع القارىء ان يرى لنفسه وجه التكلف في هذه النظرية التي لا تفسر اصل اللغة ، ولكن حماس صاحبها دفعه لكتابة كتاب ضخم في الموضوع .

---

(١) Sir Richard Paget : Human Speech. London and New York, 1930.

و ـ معرفة أصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة

عندما حلت رموز اللغات القديمة ـ السومرية ، البابلية ، المصرية ، الحثية ، الكريتية ـ وعندما تعرف علماء اللغة الى اللغات المتأخرة كلغات الهنود الحمر والزنوج واهل اوستراليا الاصليين نقول ، عند الكشف عن هذه اللغات ظنوا وهماً ان في دراسة هذه اللغات ما قد يجلو الغموض الذي يكتنف أصل اللغة . وسبب الوهم ظنهم ان هذه اللغات بدائية وقديمة ، اذن قد يكون فيها عناصر « طبق الأصل » للغة الانسان القديمة . ولكن الواقع ان هذه اللغات ليست بدائية ولا هي قديمة ، بل حديثة نسبة الى عمر اللغة . فقد اثبتت الدراسات الفيلولوجية لهذه اللغات ان وراء كل لغة منها تاريخاً مديداً لا يُعلم له بدء ، وأنها ليست بدائية في صرفها ونحوها واساليبها ، بل هي نتيجة تطور وتغيير مستمرين . وقد وصلت الينا هذه اللغات تامة التركيب وليس فيها ما يدل على بدائية . اللغة قديمة جداً . يظن ان الانسان بدأ يتكلم منذ مئة الف سنة ، وهذه اللغات ، وان اعتبرناها وهماً قديمة او بدائية ، فان وراءها عشرات الألوف من السنين كانت فيه عرضة للتغيير والتطور .

وقد وقع علماء اللغة في القرن التاسع عشر في وهم آخر فاضح ، وهو ان اللغات التي اعتبروها قديمة او بدائية بسيطة في تركيبها ، اذن هي اقرب الى الأصل على اعتبار البساطة من مميزات اللغات القديمة البدائية .

كان استاذنا ادورد سابير Sapir ، أحد اعلام علم اللغة، واحد الثقات في لغات الهنود الحمر ، يقص علينا الكثير من الطرائف في لغات هنود اميركا . كان يؤكد لنا هذه النقطة : كلما رجعنا الى الوراء في تاريخ اللغات وجدنا مظاهر تعقيد وعدم منطق ، وكلما تقدمنا نحو الأعصر الأخيرة من تاريخ اللغة وجدنا شبه اتجاه نحو التبسيط والقياس والمنطق . يقول ان في لغة قبيلة يانا (Yana) في كاليفورنيا نوعين من المفردات ونوعين من التركيب : واحد للنساء وآخر للرجال . أي أن لفظة بيت تكون كلمة مغايرة في لغة النساء للفظة بيت في لغة الرجال . وهناك لغات لا تعرف لفظاً واحداً عاماً لفكرة عامة ، ولا تستطيع التجريد . فاننا نقول اكل خبزاً واكل لحماً واكل عنباً ، اما عندهم فلكل نوع من الأكل لفظ خاص . فعل اكل في « اكل عنباً » هو غيره في « أكل موزاً » . ولا يقف الأمر عند هذه الغرائب بل نجد ان الفعل الماضي يكون غيره في المضارع وليس كما هي الحال عندنا حيث نقول أكل يأكل .

ان بقايا هذا التعقيد وبقايا عدم المنطق لا تزال ظاهرة في لغاتنا الحية . خذ التأنيث مثلا ، فان الانسان القديم كان يؤنث المفردات بلفظ مغاير للفظ المذكر . ففي العربية نقول :

رجل : امرأة
خروف : نعجة
تيس : عنزة

حصان : فرس

اسد : لبؤة

ولكن بعد زمن بدأ التأنيث الصرفي يجد مدخلا الى اللغة واصبحنا نقول :

لطيف : لطيفة

كبير : كبيرة

مؤمن : مؤمنة

واليك مثلاً آخر على انعدام المنطق في اللغة : تذكير العدد مع المؤنث وتأنيثه مع المذكر . نقول ثلاث نساء وثلاثة رجال. اين البساطة واين المنطق ؟ ولكن ماذا حدث على مر الأيام ؟ نقول اليوم « ثلاث نسوان وثلاث رجال » .

نعود الى نظرية معرفة اصل اللغة عن طريق دراسة اللغات القديمة البدائية فنقول ان دراسة هذه اللغات اثبتت اولا انها ليست قديمة جداً كما توهمنا ، وليست بدائية كما احببناها ان تكون ، فلم تسعفنا في الوصول الى معرفة الأصل بل اننا لا نزال في الظلام .

هـ ـ دراسة لغة الاطفال

وأخيراً ، بفضل تقدم العلوم التربوية والبسيكولوجية ، اتجه هم بعض الباحثين في نشأة اللغة الى دراسة لغة الطفل من

مراقبة نمو اعضاء النطق واخراج الاصوات وكيف تكتسب الاصوات معاني في الذهن . ولكن دراسة لغة الطفل لم تقدمنا خطوة نحو حل المشكلة : كيف نشأت اللغة . وذلك لاسباب عديدة منها ان الطفل لا يعيد تاريخ نشأة اللغة ، لأن اللغـــة مكتسبة لا وراثية . فانه اذا فصل طفل هندي او عربي او ياباني عن محيطه في يومه الأول ووضع في محيط آخر ، كأن نضعه في برلين او موسكو ، فانه ينشأ لغة المانيا او روسيا . ثم ان اعضاء النطق في الانسان ليست أصلاً للنطق . فانه كان يوم لم تكن فيه لغة ، وهذه الاعضاء الجسمية التي نسميها اعضاء النطق هي لاغراض جسمية اولا ثم للنطق ثانياً كاللسان والرئة والحنجرة وغيرها . هذه الاعضاء اكتسبت استعداداً ان تلين لعمليات النطق اما هي في جوهرها فلاغراض جسمية أخرى . واهم من هذا كله ان لغة الطفل ، وعلى وجه التدقيق الكلمات الأولى التي ينطق بها — لأن ما ينطق به لا ينطبق عليه اسم لغة — ليست افعالا ولا اسماء ولا حروفاً ولا جملا مركبة من مبتدأ وخبر انما هي اصوات بدائية لاغراض كثيرة وللتعبير عن حالات كثيرة . فقد يحدث الطفل صوتاً يعني : انا منزعج . هل من يريحني ؟ وصوتاً آخر يعني أنا جائع . وصوتاً آخر يعني أنا متألم من وجع . نحن نسبغ على هذه الأصوات معاني ، والطفل بدوره قد يقرنها بمعان وبحالات واستجابات ، ولكنه عندما يكبر يعلمه المجتمع ان يقول : انا جوعان ، أنا متألم ، أنـــا سعيد ... الخ . فالمجتمع اذن يعطيه اللغة ، وهو يلعب دور

المقلد لا المبتكر الخالق ، واذا ابتكر أو خلق كلمات مثل كلمة « نَنّي » في لبنان او « ان كخ » فاننا لا نقبلها منه ونقول له قل « أكل » او قل « انا مبسوط ! » اذن دراسة لغة الطفل لا تلقي كثيراً من النور على السؤال الذي عنونا به الفصل : كيف نشأت اللغة ؟ وانت ترى الآن لماذا لا يدخل عالم اللغة هذه القضية في عداد العلوم اللغوية بل يتركها لعلوم أخرى كالبسيكولوجيا والانثروبولوجيا والميثولوجيا اذ ان اللغة لم تبدأ بالمنطق والفكر ، اذ لم يكن هناك منطق او فكر . علينا ، ربما ، ان نفتش عن نشأة اللغة في نشأة الاسطورة وتطورها اذ ان الاسطورة واللغة في مبدئهما من نسيج واحد ودوافعهما الحياتية من معدن واحد(١).

* * *

(١) من له رغبة في هذه النظرية الاخيرة عليه ان يراجع دراسة لعالم الماني :

Ernest Cassirer : Sprache und Mythos (No. VI Studien der Bibliothek Warburg.)

اللغة والعرق والعقلية

وقد شغلت هذه القضية ــ اللغة والعرق والعقلية ــ بال علماء اللغة في القرن التاسع عشر ، اذ حاولوا ، تحت تأثير علـــم الانثروبولوجيا والاثنولوجيا ، ان يجدوا علاقة بين اللغة وبين عقلية الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك . وحاولوا أن يجدوا في اللغة ، ولا سيما في تركيبها : أي في صرفها ونحوها ، انعكاساً للميزات العرقية والاخلاق والمثل والنظرة الى الحياة عند الشعب الذي يتكلم هذه اللغة . والدراسات التي عنيت بطبائع الشعوب ومميزاتها المبنية على اعتبارات لغوية صرفة كثيرة العدد . وجميعنا يذكر ارنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب السامية وعقليتها وصفاتها الخلقية بناء على درس العبرية بوجه خاص (١) واني اذكر قراءة مقال لعالم الماني يبحث الفاظاً مختلفة وما تعكسه

---

(١) Ernest Renan : Histoire genérale et système comparé des langues Sémitiques, Paris.

وراجـع رد ثيودور نولدكه عليـه في مقاله الرائع اللغات السامية الذي ترجم خصيصاً لدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان : semitic languages الطبعة الثالثة عشرة .

من صور ذهنية تعكس بدورها عقلية الشعب الذي يتكلم تلك اللغة ، ومن جملتها لفظة intéressant . يقول ان هذه اللفظة الغربية لا يمكن ان تنقل الى لغة سامية ، واذا نقلت فانها تفقد الناحية الروحية العقلية التي تتضمنها اللفظة الغربية . ويعزو هذا العجز عن وضع لفظ مدلوله مدلول لفظة intéressant الى طبيعة العقل السامي الذي ينقصه الشغف العقلي واللذة الروحية اللذان تعكسهما اللفظة الغربية . اذن لا يمكن الشعب السامي ان يكون قد اسهم في خلق العلم والفلسفة والفن ، لأن اساس العلم والفلسفة والفن اللذة العقلية والشغف الروحي والرغبة الملحة في استجلاء غوامض الكون .

وكان من حرصهم على هذه الدراسات انهم حاولوا تصنيفها الى عائلات والنظر في خصائص كل منها . وقد صنفوا اللغات المعروفة الى ثلاث عائلات كبرى :

ا — الفاصلة Isolating

ب — اللاصقة Agglutinative

ج — المتصرفة Flexional

فالفاصلة هي اللغة التي لا يتغير فيها شكل الكلمة (او الجذر) اني وقع في التركيب . اما العلاقة الصرفية والنحوية بين كلمة وأخرى في الجملة فتتوقف على موقع الكلمة في الجملة لا على تصريفها او على حالاتها الاعرابية . واللغة الصينية هي من هذا

النوع . فان الضمير انا لا يتغير شكله ، كما هي الحال في لغتنا العربية تبعاً للحالات الاعرابية والصرفية ، بل يظل على شكله الأول ، انما يتغير مركزه في الجملة ، وهذا التغيير في مركز الكلمة يدل على الحالة الاعرابية او على الوظيفة النحوية التي تقوم بها الكلمة . وايضاحاً للمسألة نقول ان في لغتنا نحن يتغير الضمير « انا » الى « تُ » في مثل اكلتُ ، ويتغير الى « ني » في مثل احبني ، ويتغير الى « ي » في مثل كتابي ، واذا اكدناه قلنا اياي . اما في الصينية فيقال اكل انا احب انا كتاب انا وفي حالة التأكيد انا انا .

واللغة الانكليزية تحتفظ بعناصر من العائلات اللغوية الثلاث . فهي فاصلة ولاصقة ومتصرفة . ومثال على ميزتها الأولى (فاصلة) هذه الكلمات الخمس التالية :

Krow, What, You, Mean, Li فانك تستطيع ان تركب منها عبارات عديدة ولكل عبارة معنى يختلف عن معنى الأولى، ولكن تبقى هذه الكلمات على شكلها ، انما يتغير موقعها في الجملة :

What you mean I know.
I know what you mean.
You know what I mean.
What I mean you know.

... الخ .

أما اللغات اللاصقة فهي التي لا يتغير فيها الجذر انما نستطيع ان « نلصق » به في اوله او في آخره ، عناصر أخرى لخلق معان مختلفة . والتركية هي من هذا النوع ، وكذلك الانكليزية فاننا نقول :

Reason , reasonable , reasonably , unreasonable , unreasonableness

وفي جميعها لم يتغير شكل الجذر الأصلي : Reason

أما اللغات المتصرفة فهي التي يتغير فيها الجذر او تتغير حركته وقد يمتزج بعناصر أخرى ، او عناصر أخرى تمتزج به في اوله ووسطه وآخره ، وفي جميع هذه التغيرات يختلف المعنى . واحسن مثال على تصرف اللغات هو العربية مثل كتب كُتِب كاتب مكتوب استكتب ... الخ وقد عدوا هذا النوع من اللغات المتصرفة ارقى اللغات – ربما لأن اللغات الأوروبية متصرفة ! – وحسبوا أن أدنى اللغات هي الفاصلة ، واللغات اللاصقة هي وسط بين الطرفين . وقد قرنوا الأولى ، اللغة الفاصلة ، بالمجتمع الحضاري البدائي القائم على وحدة العائلة ، وقرنوا اللغة الثانية ، الفاصلة ، بطور البداوة ، وقرنوا الاخيرة ، المتصرفة ، بالحضارة الحالية الراقية .

ما لا شك فيه ان كثيراً من مفردات اللغة تعكس الى حد بعيد محيط الانسان الطبيعي ، والى حد محدود بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية . فالعربية مثلا قد احتفظت بطابعها

الصحراوي ، وأثر الصحراء والعيش الصحراوي القبلي الرحلي يبدو جلياً في كثير من مفرداتها في لغتنا اليوم . ولكن يجب الا نسترسل في الاستنتاج المبني على نوعية التركيب اللغوي . فان علماء اللغة اليوم لا يجدون ان التركيب اللغوي يعكس مزايا خاصة ، او أنه يدل على طبائع معينة او أخلاق ومثل عليا او دنيا . خذ مثلا التركيب اللغوي الذي يدل على الملكية (وهو في علم النحو الاضافة) فنحن العرب نعبر عن ملكية خالد للكتاب بقولنا : « كتاب خالد » وعندما يسمع العربي هذه العبارة يفهم طبيعة العلاقة بين الكتاب المحكي عنه وخالد . والانكليزي يعبر عنها بقوله :

The book of Khalid Khalid's book . او

ويعبر عنها الالماني بقوله : Das buch des Khalids

ويعبر عنها الافرنسي بقوله : Le livre de Khalid

وانت ترى ان الغاية قد تمت في جميع هذه اللغات ، وهي اظهار علاقة الكتاب بخالد ، ولا اعتبار للشكل الذي لجأ اليه العربي او الانكليزي او الالماني او الافرنسي للتعبير عن الفكرة . ولا مبرر للقول بأن التركيب العربي أحسن من التركيب الالماني او ان التركيب الالماني يعكس عبقرية لا نجدها في التركيب الانكليزي . جميعهم ارادوا التعبير عن شيء واحد وجميعهم نجحوا في التعبير عنه بطريقة فعالة مفهومة عند الناس الذين يتكلمون هذه اللغات المختلفة . اذن اللغة نتيجة لا سبب ، وان

نعزو الى التركيب خصائص عقلية وروحية واخلاقية فامر مبالغ فيه جداً . وعلماء اللغة اليوم لا يثقون بهذه الاستنتاجات اللغوية ، لا بل يخطئون الذين يحاولون ان يروا في اللغة وتركيبها انعكاساً للعقلية والاخلاق . فان في لغات بعض القبائل المتأخرة في الحضارة تراكيب عجيبة ومقدرة على التعبير بيسر وكفاءة تفوق احياناً اللغة الالمانية .

والخلاصة يجب ان نفرق بين لغة وعرق وحضارة . فها هم زنوج اميركا يتكلمون الانكليزية ولا يعرفون لغة غيرها . والهنود الحمر الذين هجروا مواطنهم وانخرطوا في الحياة الاميركية لا يعرفون لغة غير الانكليزية . ولو كان للغة خصائص عرقية معينة لا تلائم الا عرقاً خاصاً او عقلية خاصة او حضارة خاصة ، لما وجدنا ان اللغة الواحدة قد تكون مشاعاً لاعراق عديدة واداة لحضارات مختلفة .

ليس هناك من لغة لها عبقرية تفوق اللغات الأخرى ، وليس هناك من عرق صاف خلق لغة خاصة تعكس عقليته . وكل ادعاء بأن هذه اللغة او تلك أحسن اللغات وافصح اللغات واغنى اللغات وأشرف اللغات هو من باب المباهاة . اللغة شيء والحضارة شيء آخر ، واللغة شيء والعرق شيء آخر ويجب الا يخلط بينها .

علم اللغـة

(Linguistics)

ليس علم اللغة بمفهومه الحديث درس الصرف والنحو والبيان كما يدرس في المدارس الثانوية والمدارس العليا . هذا الدرس هو الجزء الميكانيكي من علم اللغة . ولا يعنى علم اللغة بلغة واحدة بل يدرس اللغة بصورة عامة على انها ظاهرة انسانية اجتماعية بسيكولوجية ، او هو جزء من درس المواصلات . وهو علم جليل القدر عظيم الفائدة في توجيهنا اللغوي والفلسفي لانه علم له اوثق العلائق بالفكر : الفلسفة والدين والأدب والعلم والفن . بكلام آخر اللغة اساس جميع العلوم الانسانية ، وهي طريق الانسان لفهم الكون والحياة .

ولكن ما يؤسف له ان يظل هذا العلم الحديث امراً مجهولا عند عامة المتأدبين وموضع استهزاء عند عامة الناس الذين ينظرون الى اللغة وعلمها انها من الدراسات الفارغة التي لا علاقة لها بواقع الحياة ، او انها من جملة هذه الكماليات التي تتلهى بها العقول الخاملة . ولكن ما يسر له هو ان بعض الجامعات

العربية (واخص بالذكر منها المصرية) بدأت تنشىء له (علم اللغة) الدوائر وترسل البعثات الى الغرب للتخصص في هذه الدراسات .

وقد يسأل احدنا : هل تخضع اللغة للعلم ، للعلم التجريبي التطبيقي كما تخضع له عناصر الطبيعة القابلة للكم وللكيف ؟ والجواب عن هذا هو ان علماء اللغة في ربع القرن الأخير حاولوا مخلصين اخضاع اللغة للعلم وقوانينه كما حاول ، ويحاول ، علماء الأجتماع اخضاع الظواهر الاجتماعية للعلم . وذلك لأن اللغة ظاهرة بيولوجية اجتماعية بسيكولوجية ، والاسلوب العلمي يطبق في هذه العلوم جميعها فما الذي يمنع من تطبيق الاسلوب العلمي على اللغة على اساس انها شيء يوصف ويحد ويقيد ويخضع للمختبر ؟

وقد يعترض احدنا : ان اللغة ظاهرة اجتماعية لا تلين لاحكام العلم الصارمة لانها في جريان او اندفاع مستمر (Continuous flux) وفي تغير دائم . وكل ظاهرة حية متطورة متغيرة تأبى التقييد . انما نحن نقيد جميع ظواهر الكون عند استقرارها وثبوتها . وفي هذا الاعتراض شيء من الصحة . ولذا يقول علماء اللغة اليوم ان وظيفة عالم اللغة هي في المرتبة الأولى الوصف (Description) . فانهم ينظرون الى اللغة على انها لغة الساعة التي يصفونها بها او على انها

لغة القرن الرابع او الخامس او التاسع عشر . وهذا الوصف الدقيق للغة في نقطة معينة من الزمان والمكان هو العلم ذاته .

ما هو هذا الاسلوب العلمي الذي اكثرنا الكلام عنه ؟ ان هذا الاسلوب يتطلب قبل كل شيء موضوعية (Objectivity) اي تجرداً عن الذاتية ، تجرداً عن كل غرض وهوى وسابق معرفة ، والبدء بالملاحظة والمراقبة وتدوين هذه الملاحظات . وبعد ان يتجمع لدى الدارس مقدار كاف من المعطيات (Data) يضع نظرية موقتة يظن انها تستطيع تفسير هذه الظواهر التي لاحظها او دونها . ثم انه في الطور الثاني يتقدم لامتحان هذه النظرية ليرى اذا كانت شاملة تعلل جميع هذه الظواهر . وهنا يثابر في التجريب والاختبار حتى يتأكد من صحتها . وكثيراً ما يرى ان عليه ان يعيد النظر في صحة هذه النظرية . ولكن اذا تبين له انها تستطيع ان تعلل جميع هذه الظواهر فانه يعلنها قانوناً او قاعدة علمية . وقد طبق هذا الاسلوب في العلوم الطبيعية اولا وكان من نتائجه هذه الاكتشافات العلمية الباهرة التي دفعت بالانسان صعداً في الحضارة الآلية . وفي سعيه الحثيث للوصول الى حياة افضل مادياً وروحياً . هذا الاسلوب العلمي يطبق الآن في درس اللغة . وقبل وصف هذا العلم يحسن بنا ان نذكر شيئاً عن تاريخ هذا العلم .

لعلم اللغة تاريخ مديد يبدأ بالبراهمة والاغريق والعرب ، فان هذه الشعوب الثلاثة برزت في العلوم العلوية وليس لنا أن

نتبسط في تاريخ علم اللغة لأن هذا يخرجنا عن الموضوع ، ولكن نرى لزاماً علينا ان نقول كلمة في القرون الثلاثة الاخيرة .

القرن الثامن عشر :

ويعرف في تاريخ علم اللغة بعصر الفيلولوجيا الكلاسيكية والمقابلات اللغوية . وقد جهد علماء اللغة في هذا القرن ان يتوصلوا الى معرفة اصل اللغة . وكانت اكثر مباحثهم اللغوية اقرب الى حقل الفلسفة منها الى حقل اللغة . وكانت خاتمة جهود هذا القرن اكتشاف اللغة السنسكريتية على يدي العالم السر وليم جونز واظهار العلاقة بين هذه اللغة وبين الاغريقية واللاتينية والانكلوسكسونية القديمة . ومن هنا كانت التسمية : اللغات الهندوجرمانية او الهندو اوروبية او اللغات الآرية نسبة الى اريا وهي ايران القديمة . كان هذا القرن بحق قرن الرومنطيقية في العلوم اللغوية .

القرن التاسع عشر :

ويعد هذا القرن في تاريخ علم اللغة قرن الدراسات التاريخية التطورية للغة من صرف ونحو وتركيب ودرس اسباب هذه التطورات والسعي لايجاد نواميس عامة تتحكم في مصائر اللغة . في هذا القرن حاول علماء اللغات ان يجدوا في اللغة اعادة سيرة الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك وكانت لفظة فيلولوجيا عندهم مرادفة لدراسة عقلية الشعب وحضارته . بكلام آخر

كانت اللغة تدرس لغاية ولا تدرس لذاتها . اللغة مرآة تعكس روح الشعب .

وقد كان للعلوم البيولوجية في ذلك العصر أثرها في الدراسات اللغوية . يظهر لك ذلك في استعمال كلمة « عائلة » واللغة الام « القرابة » « والمهد الأول للغة » وجميع هذه المصطلحات وشبيهاتها مستمدة من علم البيولوجيا . وكذلك تبسط علماء اللغة في القرن التاسع عشر في دراسات معنى المفردات وتطورها في التاريخ . وافضل شاهد على هذه الجهود قاموس اوكسفرد للغة الانكليزية ولاروس للغة الفرنسية .

وكذلك قضوا وقتاً غير قصير في الجدل حول تصنيف اللغة بالنسبة الى باقي العلوم الاجتماعية والطبيعية : هل يدخل علم اللغة في باب علم الاجتماع ، ام في باب البسيكولوجيا ، ام في باب الفلسفة ؟

القرن العشرون :

أما القرن العشرون فيحق لنا ان نسميه في تاريخ علم اللغة القرن الوصفي (Descriptive) لانه لا يعنى بالناحية التطورية التاريخية ولا يعنى بالناحية البسيكولوجية بل تتركز الجهود في وصف اللغة وصفاً علمياً دقيقاً سواء اكان ذلك من جهة الصوت (Phonology) ام من جهة الشكل (Morphology) ام من جهة التركيب (Syntax) وتمثل مدرسة لندن، قسم الفونتيك وعلم

اللغة ، هذا الاتجاه احسن تمثيل . فانك اذا كنت طالباً في هذه المدرسة وشاقك ان تعرف السبب لماذا ، وكيف ، ولأية غاية حدث هذا في تاريخ اللغة ، ومتى حدث ، لاجابك الاستاذ بقوله نحن هنا لسنا في دائرة التاريخ ! لا يهمنا « لماذا ؟ » ولا نعنى بالاسباب والعلل لاننا لا نعرف الاسباب والعلل . لماذا رفعوا الفاعل ونصبوا المفعول به ولم يعكسوا الأمر فنصبوا الفاعل ورفعوا المفعول . ولو انهم فعلوا هذا لقبلنا المنطق ذاته . يهمنا تقرير الواقع . اللغة في نظرنا هي اللغة الحاضرة ؛ لغة الساعة التي انت فيها ، وعملنا هو ان نصف هذه اللغة على مراتب (١) : مرتبة الصوت ، ومرتبة الصرف ، ومرتبة النحو او التركيب ، ومرتبة الاسلوب والبيان ، وغيرها من مراتب . وعندما يتم وصف اللغة ، ومتى تجمعت لدينا جميع المعلومات الاساسية عند ذاك يحق لنا ان نعمم ، او ان نشير الى الاتجاه ، او ان ننظر الى التاريخ ، او ان نتلفت الى المستقبل . نحن لا ندرس اللغة درساً حدسياً بل واقعياً .

ما هو علم اللغة وما هي مادته ؟ ان علم اللغة من العلوم الحديثة التي لم تستقر بعد ولم تتخذ شكلا معيناً محدداً كما هي

---

(١) مرتبة ترجمة اللفظة الغربية Level . فانك اذا نظرت في الاصوات التي تتركب منها اللفظة فان دراستك لها تكون على مرتبة الصوت ، On phonological level واذا نظرت في مقاطعها فانك تعنى بمرتبة التركيب المقطعي Syllabic structure ... الخ .

الحال في بقية العلوم . وقد مر هذا العلم في طورين . ففي الطور الأول كانت مواد هذا العلم تنحصر في :

(ا) علم اللغة العام General linguistics

(ب) علم المقابلات اللغوية Comparative philology

(ج) درس التطور الصرفي والنحوي Historical grammar

أما في الطور الثاني فقد اشتمل هذا العلم الى جانب ما ذكرنا حقولا اخرى :

(ا) الحقل الفيزيائي – البيولوجي

(ب) الحقل البسيكولوجي – الفلسفي

(ج) الحقل اللغوي الصرف من جهة وصفية بحتة لا من جهة فلسفية

أما علم اللغة العام General linguistics فيعنى باللغة اطلاقاً أي أنه لا يحصر همه في درس لغة واحدة بل يتناول اللغة كظاهرة انسانية اجتماعية ، فيدرس نواميسها العامة من صوت وتركيب واسلوب ، ثم ينظر في تطورها ونموها وانحلالها الى لهجات ، وينظر في اثرها في المجتمع . اما علم المقابلات اللغوية Comparative philology فيعنى بمقابلة لغة باخرى للوقوف على المشترك وعلى المختلف بينهما . ويدرس التطور الصرفي والنحوي كما يظهر في مقابلة صرف لغة بصرف لغة أخرى . ويحاول ان يجد في هذه المقابلات ما يلقي النور على الاسباب

والعلل . واما درس التطور النحوي والصرفي Historical grammar فيعنى بدراسةصرف ونحو ولغة ما دراسةتاريخية ، وقد ينظر أحياناً في الصرف الحي Living grammar أي صرف اللهجات ونحوها عله يجد فيه ما يفسر ما غمض في دراسته التاريخية . أما علم اللغة في الفترة الاخيرة .فقد تناول كما اشرنا حقولا ثلاثة نحب ان نقف عند كل منها قليلا لنعرض على القارىء العربي اسلوب الدراسة الغربية الحديثة للغة .

الحقل الفيزيائي – البيولوجي :

وهذه الدراسة تعنى بالاصوات اللغوية من ناحيتيها الجسمانية (الفيزيولوجية) والفيزيائية (Physical) فانالصوت مجرى هوائي يبدأ في الرئتين ، الى الحنجرة ، الى الفم ، الى مخرج الفم . ولكن هـــذا المجرى الهوائي في مسيره من الرئـــة الى الشفة يتكيف ويتحور ويتغـــير تبعـــاً لما يعترض سيره مـــن حواجز وعقبات والتواءات تضعها في سيره كل من الأوتار الصوتية ، فمؤخر الحنك ، فاللسان ، فالاسنان ، فالشفتان . وتستطيع ان تدرك هذا لنفسك اذا قارنت بين التنفس العادي والنطق باصوات لغوية . فانك اذا دفعت بالهواء من رئتك فاتحاً فمك ومانعاً الاوتار الصوتية والحنك واللسان والشفتين من ان تعترض المجرى الهوائي فلا يحدث في هذه الحالة صوت لغوي بل يحدث ما نسميه تنفساً عادياً . ولكن هذا المجرى الهوائي ذاته اذا اعترضه معترض تغير وتحور . وعندما نقول ان في اللغة الفلانية ٢٨ او ٢٩ صوتاً لغوياً فاننا نعني علمياً ان المجرى

الهوائي من الرئة الى الشفتين يتحور ويتغير الى ٢٨ او ٢٩ صوتاً لغوياً مختلفاً .

ويلاحظ القارىء ان الحقل الفيزيائي — البيولوجي يتناول الأصوات اللغوية من ناحيتين : فيزيولوجية جسمية وتعنى بعملية التنفس ووصف اعضاء النطق ، الحنجرة والاوتـــار الصوتية ومؤخر الحنك واللهاة والانف واللسان والشفتين وكل عضو آخر قد يشترك بعملية النطق ، وفيزيائية وتعنى بطبيعة السمع (Accoustics) ودرس الاصوات اللغويـــة من هـــذه الناحية يعرف بعلم الفونتيك (Phonetics) وهو من الدروس التي تفرض فرضاً على كل من اراد التخصص في علم اللغة ، لانه درس اساسي . وكما ان الطبيب لا يمكنه ان يصبح طبيباً اذا لم يكن قد اتقن اولا درس الفيزيولوجيا ، هكذا طالب علم اللغة لا يستطيع تعليل كثير من الظواهر اللغوية كالاعلال والادغام والاشمام والامالة والتفخيم والاختلاس والتليين وانحلال النظام الصوتي ونشوء اللهجات اذا لم يكن له معرفة بطبيعة هذه الاصوات وبالنواميس التي تتحكم بها .

وليس لطالب علم اللغة ان يكون فيزيولوجياً يتخصص في دراسة الجسم كله ، وليس له ان يكون عالماً فيزيائياً . انما طبيعة اللغة وطريقة النطق بها تتطلب معرفة عامة لفيزيولوجية الصوت وفيزيائيته . وقد انشأت الجامعات الكبرى دوائر خاصة لعلم الفونتيك لها اساتذتها ومختبراتها ومكاتبها . واذا قيض لك ان

تزور احدى هذه الجامعات وجدت ان مختبر الفونتيك بالآلة المصورة والمسجلة واشعة اكس لا يقل تعقيداً واهمية عن مختبر الفيزياء . ان دراسة الصوت من ناحيته الفيزيولوجية والفيزيائية تعتبر في علم اللغة مقدمة له (Prelinguistics) مقابلة له باللغة ذاتها من حيث هي اصوات تقرن بمعان (Linguistics) ومقابلة لهذين الحقلين بما يسمونه الآن (Metalinguistics) اي ما وراء الظاهرة الطبيعية للغة ، أي علاقة اللغة بالفكر والأدب والفلسفة .

الحقل البسيكولوجي – الفلسفي :

وقد ألمعنا الى أهمية هذا الدرس ، درس بسيكولوجية اللغة ، عندما بحثنا « ما هي اللغة ؟ » وقد مثلنا للقارىء بمحادثة الولد الذي طلب الى ابيه اقتطاف تفاحة له ، وماذا دار بينهما من كلام . وقلنا ان عملية التكلم على بساطتها الظاهرة ، عملية معقدة جداً تتناول الصور الذهنية التي يسببها تأثرنا بالعالم الخارجي ، والكيفية التي بها تتغير هذه الصور الذهنية الى صور صوتية تعبيرية (Verbal Symbolism) وقد سألنا اسئلة عدة عما يجري في الدماغ وكيف يجري ، وكيف تحضر المتكلم المفردات ، وكيف يكون لهذه المفردات معان مقررة في الذهن . وهناك مشاكل بسيكولوجية فلسفية أخرى لها علاقة وثيقة باللغة . ما هي اقسام الكلمة ؟ اتعلم ان علماء اللغة ليسوا على رأي واحد بل تختلف اجوبتهم عن هذا السؤال كثيراً (من ٢ الى ٣ الى ٧ الى ١٧).

ثم ما هو تحديد الفعل ؟ ما هو الاسم ؟ ما هو الحرف ؟ وهل التعاريف القديمة صحيحة دقيقة ؟ وما هي وحدة الكلام ، الكلمة ام الجملة ؟ هل صحيح ان الجملة هي المؤلفة من مبتدأ وخبر او فعل وفاعل ؟ وما قولك بجواب مفيد مثل « نعم » جواباً لمن يسألك : هل هذا هو المطعم الذي سنأكل فيه ؟ هل « نعم » جملة مفيدة ؟ وقد لا نقول « نعم » بل نكتفي باشارة بالرأس او بالتغيير في الملامح او بنوع من النحنحة التي تفيد ما تفيده لفظة نعم . فهل هذه من اللغة ؟ البسيكولوجي يقول نعم هي رد الفعل لمؤثر خارجي. وهناك قضية المعنى (Meaning) وكيف يتكون في الذهن وكيف يقرن بمجموعات معينة من الفونيمات . ثم هناك قضية الفلسفة والمنطق : هل تصلح اللغة ان تكون اداة لهما أم انها تعوق التفكير الفلسفي لانها ظاهرة قديمة نشأت عندما لم يكن هناك فلسفة ؟ واخيراً . وهذا اعقد المسائل اللغوية ، هل هناك فكر مجرد . أي هل هناك فكر او تفكير بدون كلمات ؟ جرب ان تفكر واسأل نفسك : هل استطيع ان افكر او ان ادرك الأمور بدون كلمات ؟

ان هذه القضايا على غاية من التعقيد والغموض . واذا أنت ارجعت فهرس المكتبة اللغوية (اي الكتب التي تبحث علم اللغة) لوجدت العديد من المجلدات الضخمة الموزعة بين حقول الفلسفة واللغة والبسيكولوجيا والتربية التي تبحث هذه القضايا .. ولكننا نحن لا نعيرها شيئاً من اهتمامنا . وعلماء اللغة

يحاولون ان يجدوا لهذه الاسئلة اجوبة مقنعة . وتراهم في شبه تنافس علمي مع البسيكولوجيين الذين يقولون ان اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية فلسفية ، اذ ان علمها يقع في علـــم البسيكولوجيا . يقول علماء البسيكولوجيا لعلماء اللغة لقد حاولتم في القرون الثلاثة الاخيرة ان تحلوا مشاكل اللغة ولم تفلحوا فاتركوها لنا الآن (١) .

الحقل اللغوي الصرف :

ومن الناس من ينصرف الى درس لغة ما دراسة وصفية تقريرية دون النظر الى الملابسات الاجتماعيـــة والفلسفية والبسيكولوجية . فيحصر همه في وصف اصوات اللغة واحكام التركيب ووضع المعجم (نعني مفردات اللغة) حسب اسلوب علمي دقيق .

يفرق دارس اللغة بين « لغة قديمة » و« لغة حية » . فالقديمة هي التي وصلتنا من نقطة معينة في الزمن حسب نماذج مدونة ، واعتمادنا في هذه الدراسة التقليد Tradition واحسن مثال على هذا النوع من الدراسة العبرية كما تُدرّس في الجامعـــات ، او السنسكريتية كما كان ينطق بها البراهمة في الالف الأول قبل

---

(١) من هذا القبيل كتاب الاستاذ كانتور

J. B. Kantor : An Objective Psychology of grammar, Bloomington 1936.

المسيح . والعيب في هذه الدراسات ، في نظر عالم اللغة ، هو انها لا تعتمد النطق بل الكتابة ، والكتابة غير النطق . الكتابة رمز النطق . اما النطق الصحيح والتركيب الصحيح فهو الشائع على السنة الناس لا المدون في الكتب . ولكن هذا لا يعني اهمال درس اللغات القديمة او الانتقاص من قيمتها ، كلا انما اللغة في نظر عالم اللغة هي اللغة كما وصلت الينا في اليوم الذي فيه ندرس تلك اللغة . اللغة الحية هي لغة الناس .

واذا فرّق عالم اللغة بين قديمة وحديثة فانه لا يفرق في اسلوب الدراسة . وهذا الاسلوب ، الذي تمثله مدرسة لندن احسن تمثيل ، يعتمد اولا تسجيل اللغة واللهجة المنوي درسها. فيؤتى بأناس يعتقد عالم اللغة انهم خير ممثلين لتلك اللغة . فيقرأون أو يقصون او يتحدثون عن أمر ما على رسلهم وبطريقة طبيعية وفائدة التسجيل هو ان الباحث يستطيع ان يردد على مسمعه لغة المسجلين مراراً وتكراراً وفي اوقات تخلو له . ثم يبدأ بدرس المدون حسب ما اصطلحوا عليه بالمراتب (Levels) فهناك المرتبة الصوتية Phonological level اي ضبط دقيق لنظام الاصوات اللغوية، واختلاف النطق بالاحرف المصوتة . وتسجيل أثر حرف في آخر ، وما الى هذا العلم من قبيل (وهذا جزء من فونتيك اللغة) ثم يتلو هذه المرحلة درس التركيب ويعرف بالمرتبة التركيبية Morphological level وبكلامنا العادي : صرف اللغة ونحوها . ثم يأخذ بدرس معجمية اللغة

وهناك مرتبـــة اخيرة Semantic level Lexical level
أي المرتبة المعنوية التي تعنى بالمعنى وتطوره .

وتجدر بنا الاشارة الى هذا العلم عند العرب . فانهم كالهنود والاغريق برزوا في هذا الحقل ، وذلك لمقام القرآن الكريم في حياتهم الدينية والاجتماعية . ولكن ، وهذا مما يؤسف له ، لم يعتبر لغويو العرب اللهجات ، ولم ينظروا الى اللغة انهـــا ظاهرة اجتماعية حية نامية متطورة ، بل اقتصرت جهودهم على درس وتدوين لهجة معينة في الزمان والمكان، وحرصوا على ضبط احكامها وقواعدها لكي لا يجد التغيير اليها سبيلا . ولكن اللغة لا تعرف التحديـــد ولا تقبل بالجمود بـــل اللغة سيـــل جار Continious flux.

* * *

اثر علم اللغة في تفكيرنا اللغوي

لعلم اللغة الحديث . كما وصفناه لك باقتضاب كلي في الفصل السابق . اثر عميق في تغيير نظرتنا الى اللغة ووظيفتها واثرها في الفرد . ويحسن بنا ايضاحاً للامر وايجازاً في البحث ، ان نذكر على شكل نقاط اهم النتائج التي اسفر عنها هذا العلم . والتي كان لها نصيب في تغيير نظرتنا التقليدية القديمة :

(ا) ليس هناك لغة أفضل من لغة

(ب) للغة مجرى

(ج) ليس هناك لغة رديئة وأخرى جيدة

(د) لا اعتبار للكتابة وقواعدها في علم اللغة انما الاعتبار للفظ

(هـ) اللغة اكثر من فونيمات

(و) توافق اللغة والفكر وتفاعلهما

(ز) ان الوحدة الكلامية هي التعبير التام «الجملة»

(ح) ليس للغة كيان بدون الانسان

١ ـ ليس هناك لغة أفضل من لغة :

لقد اثبت علم اللغة الحديث ان اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع انساني . وهي ظاهرة انسانية لا علاقة لها بالآلهة ولم تهبط من عل ، بل نشأت من أسفل ، وتطورت بتطور الانسان ذاته ، ونمت بنمو حضارته . وليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لغة وأخرى ، كأن يقول أحدنا ان في الالمانية عبقرية لا نجدها في الافرنسية وفي الافرنسية مقدرة على التعبير لا نجدها في التركية . لكل لغة عبقريتها ومقدرتها على التعبير عن حياة المجتمع . وليست القضية قضية لغة افضل من لغة بل قضية حضارة ارقى من حضارة وحياة اغنى من حياة .

وكذلك لا مفاضلة في اصوات اللغة كأن يقول احدنا ان في الايطالية اصواتاً اعذب موسيقى من أصوات العربية . فالذي نعده نحن البيض عذوبة في الصوت قد يعده الهندي الأحمر قبحاً وخشونة ، وما نحسبه بياناً وفصاحة قد يرى فيه الزنجي غموضاً وتعقيداً .

ولا مبرر للقول بأن مفردات لغة ما اكثر عدداً من مفردات لغة أخرى اذ قد يكون عندنا نحن البيض للصورة الذهنية لفظة خاصة تعبر عنها ، بينما نجد ان الصفر او الحمر او السود من البشر لا يشعرون بأن هذه الصورة الذهنية تحتاج الى لفظة خاصة بل قد يعبرون عنها بطريقة أخرى مخالفة ولكن فعّالة . وقضية المفردات لا تدخل في صميم اللغة . فنحن نباهي مثلا

ان للشيء الواحد عندنا اسماء عديدة . وللفعل الواحد افعالاً عديدة ، ولكن غيرنا يرى في ذلك اسرافاً . والمفردات تهرم وتموت ويحل محلها مفردات أخرى . وقد تقتبس اللغة مفردات حضارة أخرى أرقى . وهنا نكرر القول ان القضية ليست قضية شعب راق او شعب متأخر ، لأنه عندما يرتقي الشعب ويتحرر افراد المجتمع من قيود الرجعية والتقليد تستطيع كل لغة ان تساير الحضارة بلسانها الخاص . قد يجد المجتمع نفسه مضطراً للتوليد والترجمة والاقتباس ، ولكن هذا لا يضير اللغة بل يزيدها غنى .

ب — للغة مجرى :

لكل لغة مجرى تجري فيه حتماً . وهذا المجرى يتشعب إلى مجار أخرى مختلفة . وكلما بعد المجرى عن نقطة الانطلاق ازداد التباين والتغاير . مَن من عامة الناس يصدق ان الأرمنية والايرانية والروسية والالمانية والارلندية واليونانية واللاتينية والانكليزية ، على ما بينها من تباين واختلاف ظاهرين في المفردات وفي الصرف والنحو والاصوات واساليب التعبير ، نقول من من الناس يصدق ان هذه اللغات تمثل مجاري متشعبة من مجرى واحد ؟ وقل مثل هذا في اللغات السامية ، فان العربية والعبرية والبابلية والفينيقية والسريانية والحبشية تمثل مجاري متشعبة من مجرى واحد . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل ان هذه المجاري تتشعب بدورها الى مجار جديدة . فمن اللاتينية تحدرت لغات

حية هي الفرنسية والايطالية والاسبانية ، وهذه بدورها ستنحل الى لهجات متعددة يموت بعضها بانحلال المجتمع ويعيش بعضها الآخر بتماسكه ونموه .

فاللغة تشبه تلك الشجرة التي تتدلى فروعها الى اسفل فتلامس التربة وترسل في الأرض جذوراً تصبح اشجاراً فتية فيما بعد وقد تموت الشجرة الأم ولكن من فروعها تنشأ أشجار جديدة . واذا قلنا ان اللغة تموت فانما نقصد بالموت التغيير الكلي الذي يطرأ على المجتمع ، والتبدل الجذري في الحياة وفي الظروف المحيطة بالحياة الى حد نستطيع فيه القول ان لغة اليوم مغايرة للغة أمس.

قد نستطيع بيسر ان نطيل حياة لغة ما باقامة سياج حولها من احكام شديدة وقوانين ثابتة ، وقد نقيم حولها هالة من التقديس وقد نضفي على ادبها مسحة من القدسية ، وجميع هذه تطيل في حياتها ، ولكن لا مفر من المحتوم : الموت . وكل حي يموت ، واللغة حية فهي خاضعة لهذا الناموس . أليس في عربيتنا الفصحى اليوم كثير من الممات ؟

ج — ليس هناك لغة رديئة وأخرى جيدة :

ولست ادري كيف سيتقبل العرب هذه النتيجة التي اسفر عنها علم اللغة الحديث . فاننا قد اعتدنا ان نعتبر الفصحى لغة جيـــدة والعامية لغة رديئة . وكذلك اعتدنا ان نحترم « السلطة العليا » في اللغـــة فنقول : قال فلان وورد في شعر فلان .

ولكن علم اللغة يقول لا ساطة عليا الا للناس . وما يقوله الناس هو الصحيح . واذا كان صرف العامية ونحوها يختلفان عن صرف الفصحى ونحوها فليس معنى هذا ان العامية خطأ أو لغة رديئة . هي خطأ بالنسبة الى الفصحى وليس بالنسبة الى ما يقوله الناس .

اللغة الجيدة هي التي تقوم بوظيفتها على اكمل وجه ان في الفهم والافهام ، او في التعبير عن دواخل الناس بيسر وبدون اجهاد . ويعتبر علم اللغة كل كلام يخالف ما عليه الجمهور الشذوذ بعينه . وليس معنى هذا ان لا اعتبار للغات الكلاسيكية القديمة ، او ان ليس لها قيمة ، بل الأمر على عكس هذا ، انما تعتبر هذه القضايا قضايا تاريخية لها اوثق الصلة بتاريخ الشعب وبتاريخ لغتـــه . ولكن اللغة الحيـــة هي التي وصلت في مجراهـــا الطبيعي الى النقطة التي نحن فيها ، وكما هي في النقطة التي نحن فيها هي اللغة الصحيحة . فلو ان متحذلقـــاً في مقهى ما نادى : « يا غُـــلام اجلبْ لي قَدَحَ ماءٍ » بالاعراب التام ، ولو افترضنا ان السامعين لا يعرفون ان هناك لغة عربية فصحى معربة لكان رد الفعل عندهم : هذا الرجل لا يعرف كيف يتكلم باللغة الصحيحة اذ عليه ان يقول : « يا وَلَد جيبْ مَيْ » او « يا ولد هَات كبَّاية مَي » (وفي العراق كلاس (Glass) مي) هذا هو المألوف وهذا هو الصحيح .

ان قضية فصيح وغير فصيح لا تدخل في نطاق علم اللغة

بل ينظر اليها انها مسألة تاريخية سياسية بحتة . فالالمانية التي يتكلم بها أهل ورتمبورغ ، والالمانية التي يتكلم بها اهــل الالزاس ، والالمانية السويسرية في نظر علم اللغة لغات مستقلة قائمة بذاتها حرية بالدرس والتدوين كما تدرس اللغة الالمانية الفصحى (لغة المسرح) التي ليست سوى لهجة لوثر التي ترجم التوراة اليها ليقرأها الناس رغم معارضة الكنيسة . وقد أعجب الالمان بهذه اللهجة المرنة السيالة القريبة الى قلوبهم فاعتبروها لغتهم الفصحى . ولو ان مترجم التوراة ، لوثر ، كان مـن الالزاس او من الغابة السوداء لاصبحت واحدة من هاتين اللهجتين لغة المانيا الادبية .

اذن ارتقاء اللهجة الى مصاف اللغات الفصحى وقف على سلطة خارجية او على ظروف خاصة . ولكن علم اللغة الحديث لا يعترف بسلطة سوى سلطة الشعب . فلا يحق لنا مثلا ان نزعم ان لغة القرن الرابع افضل من لغة القرن الثاني او السادس ، ولغة الكتاب الاحمر احسن من لغة الكتاب الأزرق . ما يقوله الناس ، وما يكتبه الناس ، هو الصحيح ، وسوى هذا فقضية تاريخية سياسية دينية .

اثار جون واليس (Wallis) في القرن السابع عشر مسألة الفرق بين معنى Will وبين معنى Shall وشدد في التفرقة. وقد تابعه صرفيون من بعده ولكن مَن من ملايين الناس الذين يتكلمون الانكليزية يعرف الفرق الدقيق بينهما ؟ واذا تعلم هذا فـي

الصف فهل يفرق بينهما في لغته العادية اليومية ؟ يقول ادورد سابير في كتابه « اللغة » ص ١٦٦ – ١٧٧ ان لفظة Whom مهما حرص الناس على المحافظة عليها ، في طريقها الى الموت . ويعتقد سابير ان السؤال المغلوط به من ناحية قواعد اللغة : Who did you see سيكون الشائع الصحيح ، وان الشكل الصحيح Whom did you see سيكون موضع استغراب واستهجان بعد قليل. واكثر علماء اللغة يقبلون بنظرية سابير لانه اذا كانت اللغة للفهم والافهام فان احسن لغة وافصح لغة هي التي تفهم وتفهم بايسر ما يكون من الجهد .

د – لا اعتبار للكتابة وقواعدها في اللغة ، انما الاعتبار للفظ :

ليست الكتابة من جوهر اللغة . اللغة اقدم من الكتابة ، والكتابة عرض . اللغة مجموعة اصوات لغوية ، والكتابة رموز لهذه الاصوات شأنها في ذلك شأن رموز قطعة موسيقية . الرموز الموسيقية ليست الموسيقى . وقد تكون رموز الكتابة حروفاً لاتينية او عربية او هندسية شكلها اجمل من شكل الحروف الحاضرة ، فقد نرمز مثلا الى الفونيم – ن – بشكله اللاتيني n او بصورته الكتابية في اللغة الصينية او بشكل هندسي موضوع لا فرق في ذلك كله شرط ان يكون لهذه الرموز المختلفة قيمة صوتية مصطلح عليها .

ونمثل لك على صحة هذا – من ان الكتابة عرض واللفظ

جوهر ــ بمثال من لغتنا العربية . فمن المقرر المعروف ان كتابتنا العربية غير المشكلة اشبه بهيكل عظمي للكلمة لا حياة له الى ان يسبغ القارىء عليه حياة باضافة الحركات واخراج النطق الصحيح . وينطبق هذا القول ، الى حد ما ، عـلى جميع اللغات ولكنه ظاهر الوضوح في العربية الخالية من الحروف المصوتة . خذ مثلا جملة « من علمني حرفاً صرت له عبداً » فانها مجموعة حروف صامتة لا يمكن احد الناس ان يقرأها ما لم يكن يعرف مسبقاً انها كيت وكيت في اللفظ . ويدرك القارىء هذا الأمر بوضوح اذا كتبنا الجملة بالحرف اللاتيني فانها تكون هكذا :

Mn , Lmni herf sret lh' bd

وظاهر ان كتابتها لا تدل على لفظها مطلقاً ، انما يستطيع العرب قراءتها لانهم يعرفونها مسبقاً . اذن الكتابة ليست اللغة بل اصطلاح لتدوين الفاظ اللغة ، وقد يكون هذا الاصطلاح حسناً ينقل اللفظ بيسر ووضوح كما هي الحال في الحرف اللاتيني وقد يكون اصطلاحاً غير موفق كما هو في الكتابة الصورية ، او كما هو في الحرف العربي الخالي من الحركات .

ويجب ان نلاحظ ايضاً ان اللغة لا تعرف الجمود ، فهي أبداً في تغير مستمر بينما الكتابة جامدة ثابتة محافظة . ولذلك نرى فرقاً عظيماً بين الكتابة واللفظ ، ذلك لأن اللفظ يتغير ولكن محافظة الانسان على شكل الكتابة تجعلها تتسكع في المؤخرة

فالانكليزي يكتب Laugh ويلفظ Laf ويكتب Through ويلفظ Thru وكذلك الافرنسي فانه يكتب Ils mangent ويلفظ Il manj وعندما تهب طبقات الشعب مطالبة بالتيسير هنا وفي انكلترا وفي فرنسا تصطدم برجعية عنيدة . ولكن سيأتي يوم ، وهو قريب ، عندما يدرك كل انسان ، وليس علماء اللغة فقط ، ان الكتابة عرض واللفظ جوهر . وهذه القضية ، بالنسبة الينا نحن العرب ، أمر يجب أن ندركه على وجهه الصحيح لأن حرفنا من اعقد مشاكل اللغة .

يأخذ علماء اللغة المعاصرون على الصرفيين الكلاسيكيين مبدأ اعتبارهم الكتابة مقياساً للغة فجاءت اكثر قواعد الصرف والنحو في كثير من اللغات قواعد كتابة لا قواعد نطق وفهم وافهام . ولقد فات الصرفيين القدماء ان المكتوب محنط ثابت وان اللغة جسم حي نام متطور . وكل قانون مبني عـــلى المحنط الثابت يؤدي الى نتيجة محتمة : فرق شاسع بين المكتوب والمقروء .

الصرفي يجمد اللغة ويوقفها عند حد معين ولكنه في عمله هذا يشبه رجلاً يضع سياجاً من قصب في وجه دبابة من فولاذ !

هـ – اللغة اكثر من فونيمات :

ليست اللغة مجموعة كلمات مركبة من فونيمات ، وليست اللغة رموزاً كتابية . هذه من اللغة ، وجزء هام من اللغة ، ولكن اللغة فضلا عن هذه ، حياة . فاننا عندما نتكلم لا نتفوه

بسلسلة من كلمات على نغم واحد دون احساس أو شعور كآلة ميكانيكية تردد اصواتاً لا حياة لها . كلا ، بل في اللغة عنصر هام هو العنصر الانساني الذي يضفي على اللغة مسحة من تأثير السحر والجمال .

هل سمعت شاعراً يلقي قصيدته هو ذاته ؟ خذ القصيدة ذاتها واقرأها أنت لنفسك ثم أصغ الى ناظمها يقرأها فانك تجد فرقاً عظيماً بين قراءتك اياها وبين قراءة الشاعر . الفرق في العنصر الانساني . فاننا عندما نتكلم نرفق كلامنا ، وبدون تكلف وتصنع ، بشيء من الاحساس والعاطفة والصوت المنخفض احياناً والقوي احياناً أخرى . ، والنغم ، والنبرة ، والاشارة الخفية باليد ، وبانفعالات تظهر في ملامح الوجه . وأحياناً نتكلم وكأن الجسم كله يشترك في هذه العملية . ثم اننا نخاطب الطفل بلغة وبنغم يختلفان عن لغتنا ونغمنا عند كلامنا مع الرئيس والصديق او الحبيب او الخادمة . هذه الاضافات هي من صلب اللغة ولكن لا تظهر كتابة انها من اللغة . واذا كنت في شك من ذلك – من انها جزء من اللغة لا ينفصل عنها – نمثل لك بمثلين من الحياة : المسرح وقراءة الأولاد في قاعة الدرس .

اذكر اني شاهدت رواية تمثل على مسرح من مسارح لندن أعجب بها الجمهور الى حد ان الرواية ظلت تمثل مدة سنتين . واذكر اني قبل مشاهدتي الرواية قرأتها في طبعة رخيصة ثمن النسخة شلن ولا اظن اني استمتعت بقراءتها ولا أخذت بما

فيها من احاديث ونكات ، من جنون وفلسفة ، ومن كذب وصدق ، من رياء واخلاص . ولكن شعرت شعوراً يختلف تمام الاختلاف عندما شاهدت الرواية على المسرح . استمتعت كثيراً وضحكت كثيراً وفكرت كثيراً وتأثرت كثيراً . ولماذا؟ ذلك لانني عندما قرأتها لم ألمس العنصر الانساني ، أما على المسرح فاشخاص الرواية احياء يتكلمون وفي كلامهم حياة، واحياناً كثيرة لم يتكلموا ، ولكن الجمهور كان يقرأ ، ويقرأ بوضوح ، ما يجول في عقولهم وقلوبهم من افكار وعاطفة . كانت عيونهم وملامح وجوههم وحركات اجسادهم تتكلم . ليست اللغة فونيمات فقط ، للغة حياة وهي العنصر الانساني .

هل دخلت غرفة درس واصغيت الى الأولاد يقرأون ؟ هنالك معلمون ومعلمات ادركوا ان القراءة الفعالة هي التي يكون فيها العنصر الانساني ظاهراً قوياً مؤثراً ، فيطلب المعلم او المعلمة الى التلاميذ ان يرفعوا الصوت هنا وان يخفضوه هناك . هنا سؤال وهناك جواب ، هنا شدة وهناك لين ، هنا فرح وهناك حزن ، هنا استعطاف وهناك طلب ، وفي جميع هذه الحالات يجب ان يظهر المعنى بواسطة اضافة العنصر الانساني الذي لا تراه في السطر امامك . ومما يؤسف له ان في مدارسنا العربية لا تزال القراءة نوعاً من الترديد الميكانيكي وعلى نغم واحد مزعج من اول الصفحة الى آخرها .

و — توافق اللغة والفكر وتفاعلهما :

كثيراً ما تثار قضية وجود فكر مجرد بدون لغـــة او رموز وقد تُثار القضية بشكل آخر : أليس الفكر واللغة وجهين ، او مظهرين ، لعملية بسيكولوجية واحدة ؟ واكثر ما تثار هذه القضية في حقول المنطق والفلسفة والبسيكولوجيا . وللعلماء فيها آراء مختلفة واحياناً متناقضة . ومما يدعو الى هذا الخلاف والتناقض في الرأي حرص المشتغلين بحل هذه القضية على ايجاد جواب حاسم : نعم هناك فكر مجرد بدون رموز ، اولا ، ليس هناك فكر مجرد بدون رموز . وظاهر ، الى وقتنا هذا ، ان المسألة لا تتحمل الجزم سلباً او ايجاباً . فان كثيراً من الكلام لا يدخل في نطاق الفكر كما نفهم اللفظة بمدلولها العام . فانني عندما اقول : « نمت الليلة نوماً هانئاً » فانني لا أعبر عن الفكر انما هو رد فعل بسيط لحالة جسمية شعرت بها . فكأن اللغة مولد كهربائي ضخم يمكن استخدامه لتحريك آلات ضخمة او لتحريك « ضرّابة » جرس كهربائي صغير .

الواقع هو ان مفردات اللغة ترمز الى فكر . كل لفظة تشبه « كبسولا » يتضمن فكرة او صورة ذهنية يرسّخها الاختبار في العقل . فعندما نقول ، في الجملة التي استشهدنا بها آنفاً ، « نمت » فانها ترمز الى حدث او فعل يعرفه الاخرون بالاختبار ، وليس من الضروري ان نفسر النوم وعملية النوم . وعندما نقول « الليلة » فانها تنقل الى السامع فكرة او صورة معينة ، وكذلك

عند قولنا « نوماً هانئاً » . فمن هذه الجهة نجد ان جميع الفِكَر او الصور الحسية والمعنوية مضمنة في مفردات اللغة . ولكن هذا لا يعني انه لا يمكن ان يكون هناك فكر او صور او حقائق في الكون وفي الحياة مجردة عن اللغة ، أو ليست متلبسة برمز ، أي بصوت لغوي . خذ مثلاً الحقائق الرياضية والحقائق الطبيعية فان لها وجوداً ذاتياً بقطع النظر عن الرموز التي تشير اليها . ولكن يُشك كثيراً فيما اذا كان الانسان يستطيع التفكير الرياضي ، او حل المعادلات الرياضية او فهم حقائق الطبيعة بدون رموز . فهذا ناموس الجاذبية كان موجوداً قبل ان تتلبس الفكرة برمز لها ،أي لفظة «جاذبية» وحقيقة الماء من انه مزيج من عنصرين بمعادلة معينة كانت قبل ان نضع له الرمز العلمي H 20 ولكن مما لا شك فيه هو ان اللغة تسهل الفكر ، او كما كان يقول استاذنا سابير (Sapir) اللغة طريق ممهد او اخدود كالاخاديد التي تراها على سطح اسطوانة تمهد وتحدد السبيل للابرة لتمر فيه لتردد الصوت . فاللغة تسهل الفكر وتساعد على نمو الفكر . ونمو الفكر ذاته يعود فيؤثر في اللغة ونموها وتطورها فالتفاعل بين اللغة والفكر امر واقع . ان ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح او غير الواضح ، ولكن هذه الفكرة المولودة جديداً لا يصبح لها كيان ذاتي ما لم تتلبس رمزاً لغوياً ، أي ما لم تُضمَّن الفكرة في « كبسول » لغوي . عندها نشعر ان الفكرة المولودة جديداً قد أصبحت ملكاً لنا واصبحت تشكل جزءاً من تفكيرنا .

ز ـــ الوحدة الكلامية هي التعبير التام (الجملة)

تشبه اللغة نظاماً هرمياً معكوساً ، أي قائماً على رأسه الأعلى . وهذا الرأس الذي يرتكز عليه الهرم المعكوس يمثـــل الأصوات في اللغة او الفونيمات . وعلى الفونيمات تقوم مركبات الفونيمات اي الكلمات ، وفوق الكلمات طبقات تصنيف الكلمات : اسماء ضمائر افعال ... الخ . ثم تأتي الجملة فوق طبقة الكلمات الوحدة الكلامية هي التعبير التام الجميل . ومن هنا كان اختلاف علماء اللغة في اقسام الكلمة ، فمن قائل هي ثلاثة او اربعة او ستة او اكثر .

ان هذا التحليل من صنع الفلاسفة . واول من قام بهـــذا التحليل الذي يشبه الهرم المعكوس الاغريق والهنود . ولكـن الانسان القديم الذي لا يميل الى الفلسفة يعتبر التعبير التام الوحدة الكلامية ، فلا تجزئة ولا تجريد . اللغة استمرار (Continuum) وفي كثير من اللغات لا تستطيع ان تجزىء الكلمة او العبارة الى عناصرها بل هي وحدة لا تتجزأ . يستشهد الاستاذ سابير (١) بكلمة واحدة من احدى لغات الهنود الحمر :

Wii - to - kuchum - punku - rugani - yugwi - va - ntu - m

ومعناها : هؤلاء الذين سيجلسون لتقطيع بقرة سوداء

---

(١) Edward Sapir : Language, p. 31.

بالسكاكين . وتحليل هذه الكلمة الى العناصر التي تتألف منها امر لا يخطر للهنود الحمر ببال . الجملة المفيدة عندهم تعبير غير قابل للتجزؤ . انما نحن الذين نُعنى بدرس اللغة درساً تحليلياً نقسم اللغة الى طبقات. ولكن اللغة في واقعها الاجتماعي وحدة تعبيرية لا تقبل التجزئة .

ليعتبر القارىء ماذا يترتب على هذه النظرة من وجوب اجراء انقلاب اساسي في طريقة تدريس اللغة . يجب ان يكون التوكيد على الجملة ، على التعبير التام المفيد . هذا هو الوحدة اللغوية لا الفونيم او مركبات الفونيم .

و – ليس للغة كيان بدون الانسان :

وهذه حقيقة لا تحتاج الى اقامة دليل ، فانها اقرب الى البديهيات منها الى الأمور التي تتطلب البرهان . فالبابلية ، مثلا ، كانت لغة راقية يتكلم بها قسم كبير من سكان الشرق الأدنى ، وكانت كتابتها محترمة متبعة في اقاليم عدة ، وخلفت آثاراً كتابية تتسع لوضع معجم كبير . ولكن اللغة البابلية ماتت لأن الذين كانوا يتكلمون بها انقرضوا او اندمجوا في حضارات اخرى ، لأن لا كيان للغة بدون الانسان .

يترتب على هذا القول نتائج بعيدة الأثر ، وابعدها اثراً اعادة

النظر في فلسفة النحو المبنية على فكرة العامل – العامل اللفظي والعامل المعنوي – فقالوا مثلا ان سبب الاعراب العامل فالرفع والنصب والخفض لا يكون إلا بعامل، وسبب المنع من الصرف علة من العلل ، وسكون لام الفعل مثل « اكلت واكلنا » لاتصاله بضمير صحيح . بكلام آخر عزوا هذه المظاهر اللغوية لأثر كلمة في كلمة . فان « إنّ » تنصب المبتدأ وترفع الخبر ، وكان ترفع المبتدا وتنصب الخبر . فكأن للكلمة سِحراً .

ومما تجدر الاشارة اليه ان بعض الصرفيين والنحويين لم يقبلوا بهذا المنطق فان ابن جني في «خصائصه » يقول ما معناه ان الرفع والنصب والجزم مرده الى المتكلم نفسه لا لشيء غيره ، أي أن الانسان هو العامل الأول والأخير في عملية النطق . وقد ألف مفكر عربي ، ابن مضاء القرطبي ، كتاباً في الموضوع هذا سماه « الرد على النحاة » حاول فيه ان يدحض المنطق الذي كان يتمسك به النحاة ، فانه يقول ان العامل هو الانسان ذاته ليتصور القارىء ماذا يترتب على هذه النظرية الصحيحة للغة في تدريس اللغة . فعوضاً عن ان نقول للتلاميذ في اعراب « العلم نافع » العلم مبتدا مرفوع بالابتداء (عامل معنوي) نقول العرب تقول هكذا ولا تعليل آخر . وفي جملة « ان الطقس جميل » الطقس منصوبة لأن العرب هكذا قالوا وكفى .

واني اذكر بهذه المناسبة بعض ما كان ينشأ من جدل بيني وبين الاستاذ (Firth) من جامعة لندن عندما كنت احضر مجلس

تعليمه (Seminar) فاني كنت اطلب جواباً عن « لماذا ؟ » « ما السبب ؟ » فكان يجيبني الاستاذ : « السبب بسيط جداً : الانسان واي تعليل آخر هو حدس وتخمين او تقوّل في امور لا نعرف لها سبباً » .

اللغة من الحياة الانسانية وللحياة الانسانية ، وبدون الانسان لا كيان للغة ، فان عاش عاشت وان مات ماتت .

* * *

اللسان العربي

اللسان العربي في تطوره

اللغةُ العربيةُ التي سنعالجُ تطوُّرَها كتابةً ولغةً وتعبيراً هي اللغةُ العربيةُ الفُصحى التي نزل بها القرآنُ الكريم ، واللغةُ الادبيةُ التي نُظِم بها الشعرُ الجاهلي .

تُعرف هذه اللغةُ العربيةُ الفُصحى باسماء متعددة منها العدنانية الشمالية ، مقابلةً لها بالقحطانية الجنوبية ، كما أنّها تُعرف بلغةِ قريش ، وهي تسميةٌ اسلامية ، لما كان لقريشٍ من مكانةٍ دينيةٍ واجتماعيةٍ . ومهما يكُن من امرِ تسميتِها فهي اللغةُ العربيةُ الباقيةُ التي استأثرتْ بعِناية اللغويينَ القُدامى حتى يومِنا هذا على حساب لَهجات عربية أخرى ، كلغة تميمٍ التي لَو أنّهم تدارَسُوها بالعنايةِ ذاتِها التي تدارَسُوا بها لغةَ قريش لَوجدوا أنّ قواعدَها صحيحةٌ سليمةٌ صرفاً ونحواً وقياساً ، كما كان يقول ابنُ جنّيٍ اللغويُ الممتاز .

تنتمي لغتُنــا العربيةُ الى عائلةٍ لُغوية كبيرة ، تُعرفُ باللّغات السامية ، نسبةً الى سامِ ابن نوح . وقد لَعِبت الشعوبُ

التي تكلّمت هذه اللغات دَوراً حضارياً رئيسياً في التاريخ. غيرَ أنّ بعضَها قد انقرضَ كلغةٍ للتخاطبِ بانقراضِ الشعوبِ التي كانت تتكلمُ بها كالبابلية والفينيقية، وبعضُها الآخر لا يزال باقياً، كالعربية، واللغةِ الحبشية والسُريانية.

كانَ أولَ مَن أطلق عليها هذه التسمية «لغات سامية» عالِمٌ المانيٌّ اسمُهُ شلوتسر (Schlozer) بناءً على تصنيف للبشر وَرَدَ في سفر التكوين. ولكنَّ تصنيفَ البشر في التوراة لا يقومُ على اعتبارات لغوية، ولا على اعتبارات عرقيـة وجغرافية، وانما اعتَمَدَ صاحبُ التصنيف اموراً سياسية. مثالٌ على ذلك اعتبارُهُ لغةَ الفينيقيين لغةً غَيرَ سامية، وذلك للعِـداء السياسيّ والحضاريّ بين العُـبران وجيرانِهم الى الشمال. بينما اعتَبَرَ لغةَ ميديا، وهي في آسيا الصغرى، ولغةَ عِيلام وهي في بـلاد ايران، لغتَيْنِ ساميتَيْنِ، والواقعُ أنّهما تنتميانِ الى اللغاتِ الهندو ـ اوروبية.

هذه اللغات السامية تتفرّع جغرافياً الى ثلاثةِ فروع، الفَرْعِ الشرقي، وتندَرِجُ فيه لغاتُ بابلَ واشور المنقرضة، والتي وَصَلَنا منها الكثيرُ على الصَّخْر، وعلى ألواحٍ خزفيةٌ وخطّها يُعرف بالمِسماري او الاسفيني.

أمّا الفرعُ الغربي فتندرجُ فيه الآراميةُ القديمةُ ـ والسُريانيةُ لهجةٌ من لَهَجاتها ـ والكَنعانيةُ، وتشملُ الفينيقيةَ والعبريةَ واللغةَ التي اكتُشِفت في اوغاريت، رأس الشمرا.

والفرعُ الجَنوبي وتُندرجُ فيه العربيةُ والحبشيةُ . ولغــةُ الاحباش القديمة تعرف « بالكِعِزّ (ge'izz) أي لغة المهاجرين منَ اليمنِ الى افريقيا . أما العربيةُ فعربيتان : الشماليةُ أو العدنانية ، وهي موضوعُ حديثِنا ، والجنوبيةُ وتُعرف أيضاً باسماء : القحطانية ، ، السبائية ، الحِميرية ، المعينية وكلها اسماء سياسية للِغةٍ واحدةٍ ، هي لغةُ اليمن القديمة .

إن أحدث اللغاتِ الساميةِ تدويناً هي اللغةُ العربية ، فاننا نتعرف اليها لُغوياً بعد جمعِ القرآن الكريم ، وبعدَ أن جمع الشعرُ الجاهلي وبعضُ الامثال . من الأمور المذهلة حقّاً ظهورُ العربيةِ فجأة على مسرحِ الحضارة العالمية لغةً تامةً ناميةً متكاملة في صرفها ونحوِها وبيانِها وسعةِ مفرداتها ، حتى ان كثيرين من المُستشرقين يرفضون تسميةَ العربِ القدامى بالجاهليين ، لأن مَنْ كانت لغتُه العربيةَ على ما تعهدُها في القرآن الكريم ، وفي الشعر الجاهلي الرقيق ، لا يجوزُ ان يُنْعَت بالجاهل .

وَعَبَثاً يُحاول دارسُ العربيةِ العثورَ على وثائقَ لغويةً سابقةٍ للقرآنِ الكريم ليطّلع على التطوُّر الصرفي والنحوي والبياني . اما لغةُ النقوش التي يُسَمّونَها « نقوشاً عربيــة » سَبقت ظهورَ الاسلام فهي لغة ركيكةٌ لا تُشبهُ العربيــةَ الفصحى .

من أشهر وأقدم هذه النقوش السابقة للاسلام نقشُ النّمارة

ونقشُ زَبَد . عثَرَ على نَقْشِ النمارة مستشرقٌ افرنسيّ على بُعد امتارٍ من النمارة ، وهي انقاضٌ لمخفرٍ روماني قديم في جبل الدروز . وقد كُتِبَ النقشُ تخليداً لذكرى امرىء القيس ابن عمرو المتوفيّ عام ٣٢٨ وكان ملكاً على الحيرة ، وامتدّ نفوذُه الى بادية الشام . وهو غير امرىء القيس الشاعر المعروف.

يبدأ النقش هكذا : تِي نِفشِ مر قيشا . ومعنى العبارة : هذا قبرُ امرىء القيس ، وواضحٌ ان العبارة سريانية ، ولكنّ في النقش عبارةً عربية واحدة وهي «فلم يبلغُ مَلِكٌ مبلغَه» ثُمّ يليها كلمة غربية « عَكْدِي » أي القوة . كان أستاذنا انّو لِتْمنَ المستشرقُ الشهيرُ الذي عرَفتْه جامعةُ القاهرةِ استاذاً فيها يقول : هذه لغةُ رجلٍ آراميّ لا يعرِفُ العربيةَ معرفةً تامة . لغتُه السريانية ، ولكنّه يحاولُ الكتابةَ بالعربية .

والنقشُ الثاني ، نَقْش زبد ، عُثِر عليه في اللجا من أعمال حوران جَنُوبيّ دمشق . وهو مكتوبٌ باللغتين اليونانية والعربية. اما النصّ العربي فيقول : انا شَرَحْيل بِنْ ظَلَمو (يقصد ظالم) بنيتُ ذا المرطول (أي الكنيسة) سنة ٤٦٣ بعد مفسد خيبر أي بعد خراب خيبر . وقد قرأه استاذنا لتمن وأشار الى النواحي الآرامية فيه . وهذه النقوش السابقة للاسلام خاليةٌ من اعجام الحرف ، ومن حركاتِ الاعراب ، ومن حروف المدّ واللين . نَاهيك أنّ في العبارة رطانةً آرامية . وهذا معنى قولنا إنّ ظهورَ العربية الفصحى على مَسرح الحضارة العالمية لغةً تامةً راقيةً من الأمور التي يصعب تعليلها .

خصائص العربيــة

تمتاز العربية بخصائصَ لغوية تجعلُ منها لغةً غنيةً تستطيع أن تسايرَ التطورَ الحضاريَّ والفكري ، بدليلِ انَّ العربيةَ استطاعت في العهودِ الاسلاميةِ المختلفة ، ان تستوعبَ الفكرَ الدخيل ، والعلمَ الدخيل ، وانْ تعبّرَ عنهما بلغة صافية .

ألّفَ ابنُ جني ، اللغوي الشهير ، كتاباً ضخماً في خصائص العربية صَدَرَ مؤخّراً في ثلاثةِ مجلدات . أما نحن فسنتناول ثلاثَ خصائص بارزة : الاشتقاق ، والتصعيد ، والتوليد .

أما الاشتقاق فعملية خلق وابداع في اللغة ، فمن الجذر الواحد ، او المادة الواحدة كما سماها القدامى ، نستطيعُ ، نظرياً ، ان نشتقَّ أكثر من ألف كلمة بزيادةِ عناصرَ صوتية ، او اشارية ، او ضمائرية ، في اول الكلمة ، او في وسطها او بإضافتها الى آخرها . يقول السيوطي إنه احصى اوزانَ العربية فوجدَها تفوق الألف عداً . وهذا معناه اننا نستطيع ، نظرياً ، ان نشتق من جذر « علم » ألفَ كلمةٍ لا تبعُدُ في معانيها عن المعنى الأولِ المضمّنِ في الجذر الثلاثي ، وظني ان

المعنى الأول لهذا الجذر « علم » هو الجبل كما في « أشهر من نار على علم » . ولكنّ المجتمع اللغويّ يستعمل بعضَ هذه المشتقات ، ويُهمل البعضَ الآخر . فقد اشتقوا اضحوكة من ضحك ، ولكنهم لم يَرَوا ضَرورةً لاشتقاق اعلومة . كذلك نقول احدودبَ الرجلُ ولا نستعمل اضرورب او اعلولم .

تكلم القدامى عن نوعين من الاشتقاق ، الاشتقاق الصغير ، وهو ما نعرفه اليوم بعلم الصرف الذي نعلّمهُ صغارَنـا في المدرسة ؛ والاشتقاق الكبير أو الأكبر الذي قد أهمل أمره في يومنا هذا ، لأنه ترفٌ عقلي ، ولهوٌ لغويّ لا طائل فيه ولا جدوى . وذلك أن تأخذَ جذراً مثل « كلم » وتقلبَ حروفَه على الأوجه الستة فيحصلُ لك ستُّ كلمات هي كلم وكمل ولكم ولمك ومكل وملك ثم تحاول ان تجد معنىً واحداً مشتركاً بينها . وقد حاول ابن جني ان يرى معنى واحداً لهذه الكلمات الست هو معنى القوة والشدة ، ولكن بتكلف وحُسن حيلة كما يقول. الحمدُ لله اننا لا نعنى به في المدرسة . ففي المدرسة نعلّم الاشتقاق الصغير أي الصرف ، ونعلم المشتقات التي اقرّها السماع ، أي التي وردت في نصّ أو سُمعت من عربي فصيـح . ولكن اذا اضطر الأديب او العالم الى اشتقاق كلمة قياسية ، وان لم تكن قد سمعت عن عربي فصيح ، فاننا لا نتحرّجُ اخذاً بقول مَن يقول « كلُّ ما قيس على كلام العرب فهو من لغة العرب». فالاخذُ بسُنة القياس لِما في القياس من عوامل النموّ أمـر واجب .

وتمتاز العربيةُ بخاصّة التصعيد ، أي الارتفاعِ بالمعنى من الصورة المادية الملموسة الى الصورة الذهنية . فان معانيَ الجذورِ الأولى ماديةٌ محسوسةٌ وَضعية ، ولكن عبرَ التصعيد ترتفع لفظة « العقل » المشتقة من العقال ، وهو حبل يربط به البعير كي لا يشرد ، الى صورة ذهنية غيرِ ملموسة ، أي أن الذات يصبح معنىً . في جميع اللغات السامية لفظة روح مشتقة من الريح ، والنفس من التنفس ، ولا نزال نقول اخمد انفاسه أي أماته . والمجدُ من مَجَدَتِ الدابةُ أي امتلأت فبَطِرت ، كذلك قُل في لفظة الشرف والاباء والتضحية والعزّ فانك اذا نظرت في معاني جذورِها لوجدْتَها من النوعِ الملموس المحسوس .

لقد اتّهم المستشرقُ ارنست رينان الشعوبَ السامية بأن لغاتِها لا تصلُح للتعبير عن المعاني ، لانها لغاتٌ صُوريةٌ مادية. ولكن فاتَه انّ لغتَه الافرنسية تُصعّد بالمعاني من الصور المادية الى المعنوية . وخطأ المستشرقين أنّهم ينظرون في المعاجم فتبرزُ الصورُ الماديةُ للمعاني الأولى فيرمُونَنا بهذه التهمة . لكن الواقعَ أنّ العربية ، عبرَ المجاز ، استطاعت ان ترتفع بالذات الى مرتبة المعنى .

أما التوليد فهو اسباغ معنى جديد على كلمة قديمة فصيحة تتضمن معنى آخر . فالهاتِفُ تعني ، قاموسياً ، من يُسمَعُ صوتُه ولا يُرى شخصُه ، أما الآن فهو التلفون . كذلك

مُحرّك السيارة . فالمحرك صرفياً اسم الفاعل من حرّك ، والسيارة مبالغة من السير . أما في يومنا هذا فالمحرك شيء معين محدد ، والسيارة هي الاوتوموبيل . وعندما نَقَلَ العربُ الفكرَ الاغريقي عمدوا الى التوليد ، وأحياناً الى الاشتقاق القياسي ، وعندما لم يكن التوليد او الاشتقاق امراً ممكناً ، كانوا يعمدون الى التعريب ، أي لفظِ الكلمةِ الاعجمية على شكل عربي الوزن ككلمة « درهم » التي أصلها دراخما .

وكلمة أخيرة عن خاصة أخرى من خصائص اللغات ، هي النحت . والنحت دمج كلمتين ، بَعْدَ حذفٍ وصقل ، لتكوينِ كلمة جديدةٍ ذات معنى جديد . هل تلين العربية للنحت ؟ هناك كلماتٌ منحوتةٌ قليلةُ العددِ جداً مثل « ماهية » الشيء ولفظة « مال » المركبة من « ما » الموصولة وحرف الجرّ اللام . ولا تَقَعَنّ في الوهم الذي يقع فيه بعض الناس من اعتبارِ كلمةَ « حَوْقَل » واشباهِها أنّها كلماتٌ منحوتة . هذه مختصراتٌ لعبارات وجُمل ، وليست نحتاً بالمعنى اللغوي . إن كلمات بيولوجيا وجغرافيا وتلسكوب مثلا كلماتٌ منحوتةٌ من لفظين بعد حذف وصقل. فالأولى من bios ومعناها الحياة و Logos الكلمة وتعني أيضاً العلم . وجغرافيا من gea الأرض Graphien ومعناها الصورة والهيأة وقد نقلها العرب بمعناها ، فتكلموا عن هيأة الأرض . وتلسكوب مركبة من لفظة Tele وتفيد البعد والمسافة و Scope مدى الرؤية . أما رأينا فهو أنّ

الجذورَ العربية تأبى النحت ، لأنك اذا حذفت حرفاً من الحروف الأصيلة افسدتَ المعنى ، واذا كان احدهم وُفّقَ الى وضع كلمة « برمائي » اي الحيوان الذي يعيش في الماء وعلى اليابسة ، او كلمة « المدرحية » ، أي تفسير التاريخ على اسسٍ مادية روحية فليس معناه اننا نستطيع ان نستفيدَ من هذه الخاصة اللغوية .

* * *

ضبط احكام اللغة العربية وقواعدها

بدايةُ نشأةِ النحو غامضة ، وكل غامض في التاريخ تنشأ حولَهُ رواياتٌ وأساطيرُ في محاولةٍ للكشفِ عن الغامض .

اولُ كتابٍ أُلّفَ في احكامِ العربيةِ وقواعدِها ، كتابُ سيبويهِ الذي يُعرَفُ « بالكتاب » . وهو تامُّ الصَّنْعَةِ في شمولهِ وعُمقِهِ ودقةِ مُصطلحه . وقد شكَّ كثيرونَ في أنْ يكونَ سيبويهِ قد تَوصَّلَ الى وَضْعِ علمٍ جديدٍ بمصطلحٍ مبتكرٍ دون ان يكونَ قد اعتمدَ مصادرَ قديمة . والدلائلُ تُشيرُ بوضوح الى أنَّ جهوداً لغويةً بُذِلتْ في هذا السبيل قبلَ عهدِ سيبويه ، وها هي اخبارُ حَلَقاتِ البَصرةِ وما كان يدورُ فيها من نقاشٍ وجَدَلٍ لُغويَّيْنِ شاهدٌ على هذا .

يُعزى وضعُ النحوِ الى أبي الأسودِ الدؤليّ . تقولُ روايةٌ إنَّ ابنتَــهُ قالت له ذاتَ مساء : ما اجمــلُ « السماء » وكانت تريدُ التعجبَ لا السؤالَ عن اجملِ شيء في السماء . فأجابها : « نُجومُها ! » قالت لستُ اسألُ ، بل إني اتعجب . فقال لها : قولي ، إذن ، ما أجملَ السماءَ ! وراح يكتبُ فصلاً

عن التعجب . وإننا نستشعرُ بأنَّ القِصّةَ موضوعة ، اذ لا يُعْقَلُ ان يَبدأ واضِعُ احكامِ اللغةِ بباب التعجب ، لأنه ليسَ من الابواب الرئيسيةِ في الأحكام اللغوية .

وتقول روايةٌ أخرى إنَّ الامامَ علياً اميرَ المؤمنين رضي الله عنه ، أوعز اليه ان يتابعَ ما كانَ قد بدأ به من وَضْعِ احكامِ للغة العربية . فقال له « أنحُ هذا النحو ! وسمّي للملك « النحو ». أما نحن فلنا رأيٌ آخرُ في معنى كلمةِ « نحو » سنأتي على ذكره فيما بعد .

وتقول روايةٌ إنه أي أبا الاسود استأذنَ زياداً أن يضعَ قواعد للغة العربيةِ ، فأبى إلى أن سَمِعَ رجلاً يخاطِبُه بقولِه « تُوفي أبانا وخلّفَ بنون » عندها أذِنَ له . وتقول روايةٌ أخرى إنَّ أميرَ المؤمنين ، عمر ، رضي الله عنه ، سمع رجلاً يقرأ الآيةَ الكريمة « إن اللهَ بريء من المشركينَ ورسوله » بكسر اللام عطفاً على المشركينَ ، فساءه ان يسمَعَ كُفراً كهذا ، فأوعز الى أبي الاسودِ انْ يضعَ احكاماً للغة . وانت ترى أنَّ هذه الرواياتِ موضوعةٌ لتعليلِ قضيةِ تاريخيةِ ليستْ على وضوح تام .

ان الذي عملَه ابُو الاسود الدؤلي في هذا السبيل هو تنقيطُ القرآن الكريم بغيةَ ضَبطِ قراءته فلا يتسرّب اللحْنُ اليه . وكان جيلٌ من القُراء والحُفّاظِ قد مات ، والخطُ العربي

يفتقرُ الى إعجام وحركات ، فكيف يتسنّى للاجيال الطالعة ان تقرأ كتابَ الله قراءةً صحيحة ؟ يقال لنا إنّ ابا الاسود اتخذ كاتباً فَطِناً من بني عبدِ القيس وقال له : « اذا فتحتُ فمي ضَع نقطةً فوق الحرف . واذا كسرتُ شفتيَّ ضــع نُقطةً تحتَ الحرف ، وإذا ضَمَمْتُهما فضع نُقطةً لَدن الحرف . » ومن يعرفُ اللغةَ السُريانيةَ القديمةَ يدركُ فوراً أنّ هذا النظامَ من التحريك هو النظــامُ السّريانيُّ القديم . ان التفاعلَ الفكريَ الحضاريّ بين العرب وسُريان العراق بدأ في عهدٍ مبكّر ، ويجب أن يكونَ العربُ قد لَحَظوا أنّ للسّريانيةِ صرفاً ونحواً ، لانهم سَبَقُوا العرب في هذا الحقل . كذلك نعلم مثلاً أنّ أسقفَ نِصيبينَ ، واسمُه سيبوخت ، كان عالماً يُتقنُ الاغريقية ، وقد عُني بوضع صرفٍ ونحو للغة السّريانية على نمط الصرف والنحو الاغريقيَيْن . سيبوخت هذا أجازَ لجميعِ كهنتِه أن يُشافِهوا العربَ ، وان يعلّموهم ، وان يُطلِعوهم على ما عندهم من علوم . فالاتصالُ الحضاري الفكري بدأ في أيامِ ابي الاسود الدؤلي . وقولُ مَن يقول إنّ النحوَ العربيّ متأثّر بالمنطق الارسطوطاليسي يحتاجُ الى تعديل . العرب تأثروا اولاً بالفكر السُرياني قبل ان يتعرفوا الى الفكر الاغريقي . وعملُ ابي الاسود الدؤلي يُشير الى تأثُّره بالسريانية

في رأينا أنّ النحوَ نشأ في البصرة على مراحل ، ومدينة البصرة قريبة من جُنْدَيشابور التي كانت من المراكز الهلينية المشهورة.

أما الدوافعُ الحقيقيةُ لوضعِ احكامٍ للغة العربية ، فيُمكن ايجازُها في اربعِ نِقاط : اولا الدافعُ الديني : فقد قيل لنا إن اللّحنَ تَسرّبَ الى العربية في عهد مبكر . فان الاسلامَ أظلَّ بظلِه أمماً غيرَ عربية اعتنقتِ الاسلامَ ديناً . وكان من نتائجِ هذا الدمْج البشري أنّ فَقَدَ العربُ شيئاً من السليقةِ اللُغويةِ الفِطرية . وذكرنا آنفاً أنّ الجيلَ الأول من القراء كان قد مات ، او قتل منهم من قتل . وقد يتغاضى الناسُ عن هَفَوات لُغويةٍ عند قِراءة الأدب شِعراً ونثراً ، ولكنهم لا يغفِرون زَلّة من يُخطىء في قراءةِ كلامِ الله . للكتب المقدسة حُرمتُها وعندما نقول إن العربيةَ مَدينةٌ للقرآنِ الكريم بحِفظِها وببقائها فانّ قولَنا هذا صحيحٌ بشهادة التاريخ .

ثانياً : حِرصُ الاعاجم والموالي على تعلُّمِ العربية ليقرأوا كلامَ الله . والى جانب حرص الأعاجم على تعلّم العربية نذكر نشوء المدرسة . العِلمُ فرْضٌ على كلٌ مسلم . فكيفَ يتسنى للأعجمي ، أو للولد الصغير في الكتّاب ، أنْ يُتقِنَ لغةً لا أحكامَ لها ولا ضوابط ؟

ثالثاً : الخط العربي . فالكتابةُ الساميةُ تقتصر على الحروف الصامتة ويُترَكُ أمرُ الحركات للقارىء . وفي هذا صعوبةٌ كُليةٌ ومزالِقُ خطرة . أضف الى هذا أن في الخط العربي حروفاً متشابهةً كالبـــاء والتاء والثاء ، واذا لم تُعْجمْ ، أي اذا لم تُوضعْ لها نُقطٌ للتفرقة بينها ، فقد يلتبسُ الأمرُ على القارىء.

وافتقار الخط العربي الى الإعجام والى الحركات ، كان من الدوافع الشديدةِ لوضعِ قواعدَ للقراءة الصحيحة .

رابعاً : الدافع القومي . فبين ليلة وضحاها وجَد العربُ انفسَهم وارثين لحضارةِ الروم والفرس والشعوب الآرامية . ولهذه الأقوام التي ورثوها سياسياً وحضارياً كُتُبهم المقدَّسة ، ولهذه الكتبِ المقدسة أحكامٌ وقواعدُ لغوية" ، فلماذا لا يكونُ لِلغتِهم التي يُقدِّسونَها احكامُها وقواعدُها ؟ وهكذا وَكمْ ينقضِ القرنُ الأول حتى كانت علومُ اللغةِ العربية قَدْ بدأتْ — بالتبلور ، حتى جاء سيبويهِ ، تلميذُ الخليل ، فأعاد تنظيمَها ، وراحَ يعملُ على تقْعيدِها على أسس منطقية فلسفية .

***

اصول النحو العربي

اللغةُ مستودَعُ الفكرِ ، وعُنْوَانُ الحضارةِ لدى كلّ أمة . ولذا كانتْ من المقدّسات ، لأنّها سجلّ حافلٌ دَوّنتْ فيه الأمةُ أحاسيسَها الدينية ، ومآتيهَا التاريخية ، ومنجزاتِها العلمية ، وبها عَبّرَ الشاعِرُ عن آمالِ أمتِـهِ وآلامِها .

فاللغةُ ملكُ الأمةِ ، لا الافراد ، إذن يجبُ ان تُضبَطَ احكامُها ، وان يُستَّجَ حولَها بسياجٍ يقيها عبَثَ العابثين ، وشُرودَ الشاردين . هي ملكٌ للاجيالِ الطالعةِ . هكذا شَعَرَ اصحابُ اللغةِ العربيةِ في وقتٍ مبكّرٍ جداً . أما الفضلُ الحقيقيُّ في تقْعيدِ النحوِ العربيِ وإقامةِ بُنْيَانِهِ على أصولٍ ، فيعود إلى الخليلِ والى تلميذه سيبويه .

اعتَمَدَ الخليلُ في وَضْعِ صَرْحِ النحوِ ثلاثةَ أصول : (ا) السماع (ب) والتعليل (ج) والقياس ، وهو أسلوبٌ علميٌّ لا غُبارَ عليه ، لولا بعضُ المآخذ الثانوية التي سنأتي على ذكرِها قبلَ نهاية حديثنا .

اما السماعَ فمصطلحٌ مُرادِفٌ للاحتجاج في اللغة . اذا اردتَ أنْ تدرسَ لهجةً لم توضَعْ لها قواعدُ من قبل ، فيتوجبُ عليكَ أنْ تَجْمَعَ مادةً لغويةً من تلكَ اللهجةِ لتستنْبِطَ احكامَها وقواعدَها بناءً على ما تلاحظهُ من مظاهرَ لغوية . فاذا وجدتَ أنَّ الفاعلَ ، أو المُتَكَلَّمَ عنه في الجُملة يَرِدُ دَوْماً بحالةِ الرفع ، مثل قام زيدٌ ، وزيدٌ رجلٌ كريم فانك تقعِّد ، أي أنّك تضعُ قاعدةً تقول : الفاعلُ مرفوع والمتكلّمُ عنه مرفوع . هكذا فَعَلَ قُدامى النحويين : استقروا النُّصوصَ ووضعوا القاعدة . ولكنْ ايةَ نُصوص ؟ لقد اعتمد الخليلُ ، باني صَرْحِ النحو نبعين : النقلَ عن القراء ، أي قُراءِ القرآنِ الكريم ، والأخذَ عن أفواهِ العرب الخلّص . وكان يُضعّفُ الأخذَ بلفظ الحديث ، لأن الأعاجمَ كانوا يروونه ، هذا الى جانب وُرودِ بَعْضِ الاحاديثِ بألفاظٍ مختلفة . أما غيرُه ممّن جاءَ بعدَه فكانَ يَحتجُ بالحديثِ الشريفِ ولو كان راويه أعجمياً . أي أنَّ المادةَ اللغويةَ التي اعتمدها قدامى النحويين كانت نصَّ القرآنِ الكريم على اختلاف القراءات اذا صَحَّ السندُ ، واذا كان لها وجهٌ من وجوه العربية ونصَّ الاحاديث (باستثناء الخليل) ، وكلامَ العربِ الخلّص.

أما المبدأ فصحيح ، ولكن هناك مآخذُ على الاحتجاج . فان القدامى لم يصدُروا عن خطة مُحكَمة ، بل كان بعضُهم يستشهدُ حَسْبَ هواه . ثم إنّهم لم يُحققوا أحياناً في أمانة

الرواة ، أضف الى هذا حُبَّ الغريبِ في اللغة ، والنادرَ فيها ، مما اتعبَ أهلَ العربيةِ ، ولا يزالُ الى يومِنا يُتعبُنا كباراً وصغاراً . وما قولُكَ في الألفاظِ المطردةِ في الاستعمال الشاذة في القياس ؟ المتحررون في اللغة قالوا إنَّ الشاذَّ الشائعَ مقبولاً واخطرُ هذه المآخذِ مسألةُ الحدِّ من نُموِّ اللغةِ اذا اقتصرَ الاحتجاجُ على القديم . اللغةُ كائنٌ حيٌّ ينمو ويتسعُ لِمُسايرةِ الفكرِ والحضارة . والاحتجاجُ بالقديم وحدَه ، يَحِدُّ من خاصةِ التوليد ، ومن الارتجال والإبداعِ في اللغة . فقد كان بعض القُدامى يَستنكِفُ ان يحتجَّ بعربيةَ مَن أتى بعدَ العَصْر الأموي ، وفي هذا تزمّتٌ وإجحاف

أما الأصل الثاني من اصول النحو : التعليل ، وهو ايجادُ العِلة التي تُسَبِّبُ الاعراب . انّ اللغةَ العربيةَ لغةٌ معربَةٌ أي أنَّ الحركةَ في آخرِ اللفظةِ تتغيّرُ تَبَعاً لوظيفة الكلمة في الجملة ، أو لموقعِها فيها . واللغويون اعتبروا أنَّ الكلمةَ ساكِنَةٌ قبل التركيب مثل « ولدْ » ولكن تُصبحُ « ولدٌ ولداً ولدٍ » في التركيب ، بفضل عامل . فالعامِلُ هو الذي يُسبب الرفعَ والنصبَ والجزْم والجر . ومردُّ كلِّ خِلاف في النحو الى العاملِ وتقديرِه .

غير ان بعضَ لُغويي العربِ لم يَرْضَوْا كلَّ الرِّضى عن قضية العامل . يقول ابنُ مضاءِ القُرطُبي في كتابه « الردُّ على

النحاة ، كيف يُمكِنُ أن تكونَ لفظةُ «إنَّ» سبباً في نَصب زيدٍ في جُملةِ « إنَّ زيداً رجلٌ فاضل » ؟ العامل يعمل إمّا بإرادةٍ او بطبعٍ . فالانسانُ عاملٌ بارادة ، والنارُ تُحرِقُ بطبعٍ . ولكنَّ لفظة « إنَّ » صوتٌ اذا خرَج من الفَم انقطعَ عملُه وتأثيرُه . إذن نصبُ « زيد » في جملةِ « ان زيداً كريم » مردُّه الى أنَّ العربيَّ قال هذا ولَم يَقُلْ غَيرَه .

ولم يكن ابنُ مَضاءِ القرطبيُّ الذي كان يَتّبِعُ المذهبَ الظاهريَّ ويرفُضُ التأويلَ والتقديرَ والإضمار ، اولَ مَن قال إنَّ العلّة النحوية مردُّها الى الانسان . فقد سَبَقه الى ذلك ابنُ جِنّي الذي يقولُ في معرضِ كلامهِ عن « مقاييس اللغة العربية » إن العواملَ اللفظية (اي الفعلَ الذي يرفعُ وينصبُ ، ولم التي تَجزِمُ ، وإنَّ التي تنصُب المبتدأ وغيرها من العوامل) هي في الواقع عواملُ معنوية . فإنَّ اللفظةَ لا أثرَ لَها في لفظةٍ أخرى.الإعرابُ مردُّه الىالانسان العربيالاول ثم يتابع ابنُ جِنّي كلامه فيقول : « اما في الحقيقةِ ومحصولُ الحديث ، فإن العملَ مِن رفعٍ ونصبٍ وجرّ وجزمٍ انما هو للمتكلم » . وهذه النظرةُ التحرُّرية الى العامل خطيرةُ الشأن ، ذلك إذا علمت انَّ النحوَ الذي وَصَلنا في عهودهِ الاخيرة،والنحوَ الذي نعلِّمُهُ اولادَنا،نَحوٌقائمٌ على اساسِ العلة : اي لماذا مرفوع ؟ ولماذا منصوب ؟ الواقعُ أنّه مرفوعٌ لأن العرب رفعته لاسباب نَجهلُها ، ومنصوبٌ لأن العربَ نَصبتْه لامور تخفى الآنَ عنّا .

بقي الأصل الثالث من اصول النحو ، وهو القياس . كان الكسائي يقول : « النحوُ قياسٌ يُتّبع » وكان ابنُ الأنباري يقول : إنّ انكارَ القياسِ في النحو لا يتحقق ، لأنّ النحوَ كلّه قياس ، فمن انكر القياسَ انكرَ النحو . وتعريفُ القياس هو حَمْلُ غيرِ المنقول ، أي الكلام الذي لم يَرد في نصٍّ قديم ، عـلى المنقولِ اي الكلامِ الذي وَرد في النصوص ، وذلك لعلّة جامعة بينهما . على المنقول في حُكمٍ لعلّةٍ جامعة .

غير ان القياس ، وان لم يستعرِ الخلافُ حولَه كما استعَرَ حول العامل ، فانه ظلّ منشأ خلاف . يقول ابنُ قتيبة : « ليسَ لمتأخّرٍ ان يقيس على اشتقاقهم فيُطلقَ ما لم يُطلقوا. واستشهدَ برأي الخليل الذي استنكر اشتقاق لفظة ارفنعا حملا على اقعنسسا في بيت للعجّاج يقول فيه .

تقاعَسَ العزُّ بنا فاقعنسسا ، أي تراجعَ وتقاعسَ فأتاه من يقول :

ترافع العز بنا فارْفَنْعَعَا . فانكره الخليل . الخبر ليس بذي بال وانما يدور حول مبدأ جوهري : الى ايّ مدى نقيسُ في اللغة ؟ هل نتّبعُ قولَ من قال : « ما قيس على كلام العرب فهو من لغة العرب » . أم نكتفي بالسّماع ؟ نحن نقول بالقياس .

منهج قدامى النحويين في دراسة اللغة

هناك منهجان لدراسة اللغة : المنهجُ الفلسفيّ ، والمنهج الوصفي ، والفرقُ بينهما كبيرٌ جداً .

يقول أصحابُ المنهجِ الفلسفيّ ، ينبغي لنا أن نعرفَ الأسبابَ والعلل التي تُحدِثُ التغييراتِ اللغوية . فظاهرةُ الأعرابِ تحتاجُ الى تعليل ، وظاهرةِ الاشتقاقِ تحتاجُ الى تفسير ، وقلْ مثلَ هذا في التصريفِ ، وفي التغييرِ في بُنيةِ الكلمة . نقول مثلاً قتَل وقُتِلَ والفرقُ في المعنى كبير ، ونقول معلمون ومعلمين ، ومحسِناتٌ ومحسنات لماذا ؟ ولك ان تسألَ اسئلةً لا حصرَ لها عن المظاهر اللغوية . والعقلُ البشريُّ شغوفٌ بمعرفةِ الاسباب والعلل ، وهذا الشَغفُ العقليُّ هو الذي دَفَع بالانسانِ الى اكتشافِ الكونِ واكتناهِ اسرارهِ . فلا ضَيْرَ في السؤال عنِ الاسبابِ.

أما منطلق أصحاب المنهج الفلسفي فهو أنَّ اللغةَ منطقيةٌ قياسيةٌ مطردةٌ تخضعَ لقوانينِ المنطقِ الصارمِ . اذن ، فليس بالعسيرِ علينا أن نتوصلَ الى معرفةِ الأسباب والعلل . وهذا هو رأي أرسطو في اللغةِ اليونانية ، وهو رأيٌ خاطىء .

وأما مُنطلق أصحاب المنهجِ الوصفي فهو أنّنا لا نعرفُ الاسباب والعلل ، ولا يُمكِنُ التوصُّل إلى معرفتِها ، لأن اللغةَ قديمةٌ جداً ، ولا سبيلَ إلى معرفة نشأتِها الأولى . ولكن مما هو ثابتٌ لديهم أنّ اللغة لم تنشأ عنِ الفكرِ التامِّ في تطوره ، بل نشأت مع الانفعالاتِ والعواطفِ والغناء والرقصِ المقدس . وهذه الحالاتُ أبعدُ ما تكونُ عن المنطقِ الصارم ؛ ولذا تحدَّرت جميعُ اللغات الى الشعوبِ مَمزوجةً بانعدام المنطق . يقول أصحاب المنهجُ الوصفي إنّه لا يمكننا في هذه الحالة إلاّ ان نَصِف ما يجري في اللغة . عَمَلُنا تقريرُ واقعٍ لا تعليلٌ لنشأة هذا الواقع وتفسيرٌ للأسباب التي ادت اليه . فموقفهم من اللغة لا يختلف كثيراً عن موقف أصحاب الفقه عندما يقولون : « ما جاء على أصلهِ لا يُسألُ عن علته » . كما أنّ موقفَهم هذا من اللغة هو موقِفُ ابنِ جني وابنِ مضاء القرطبي . فابنُ جني يقول : العِلل في جوهَرِها تعود إلى المتكلم العربي لا إلى عواملَ لفظية . وابنُ مضاء القرطبي يقول : لو أنّ العربَ قالوا : إنّ زيدٍ او إنّ زيدٌ لكننا قبلنا قولهم على أنه الفصيح، ولكنّا نُعلِّمُ اولادَنا أن لا يقولوا إن زيدٍ او ان زيدٌ .

نَظَرَ قدامى النحويين الى اللغة العربية نَظْرةً فلسفية ، وكانوا في ذلك متأثرين بنظرة ارسطو الفلسفية الى اللغة ولكن ليسَ مباشرةً ، لأنهم لم يكونوا قد عرفوا ارسطو عندما بدأوا

بوَضْع صَرْح النحو . فقد تأثروا اولاً بالسريان الذين وضعوا احكامَ لغتهم على نَمَط الاغريق . ولا ننسى انهم كانوا يعيشون جو فلسفة واعتزال .

كان أرسطو يقول إن اللغةَ الاغريقية لغةٌ منطقية تعكسُ الكون المنطقي ، يتألفُ هذا الكونُ ، بحَسْب نظرية ارسطو ، من ذات (اي من مادة) ومن فعلٍ او حركة ، ومن أداة تربط بينهما . كذلك اللغةُ فإنّ موادَّها الاوليةَ تتألفُ من ذواتٍ (هي الاسماء) ومن أفعال (وتمثل الحركة) ومن ادوات وقد سماها الكوفيون فعلاً ادوات ، اما أهلُ البصرة فسمّوها حروفاً . وأنت ترى ان تقسيمَ الكلمة عندنا تقسيم فلسفي لا لغوي . والمعلمون يعانون ما يعانونه في تقريب هذا التقسيم الى افهام الاولاد . فان الولد في المدرسة الابتدائية لا يستطيع أن يَفهم كيف ان كلماتٍ مثل « خبز » و « هذا » ، و« أين» « وما الموصولية » و « جميلٌ » جميعها من صنف واحد . أما المنهج الوصفي فانه يقسمها ، تسهيلا وتوضيحاً الى أسماء وصِفاتٍ وضمائر .

ونظر ارسطو الى الجُملةِ التامّة المفيدةِ أنّها حكمٌ منطقي يتألف من عنصرين او ثلاثة ، مثل « الشمسُ تشرق صباحاً » فانها جملة تتألف من شيء تتكلم عنه ، ومن شيء تقولُه عن المتكلّم عنه ومن تكملةٍ للمعنى وهي الظرف . ولكن فات

ارسطو ان في اللغة جملا لا تَنطبق عليها احكامُه مثل الجملة العربية « سَقْياً لك » ومثل الجملة التعجبية « ما اجملَ السماءَ » ! فانها من نوع الجمل الذي يسميها اصحابُ المنهجِ الوصفي « الجملَ الانفعالية » الصادرةَ عن عاطفةٍ وعن انفعال . هذه ليست منطقيةً كجملةِ الشمسُ تشرق صباحاً . فماذا قال النحويون العربُ عنها وعن امثالِهـــا ؟ قالوا أشياء كثيرة لم يقبلْ بصحتها كثيرون من القدماء والمُحدثين . ففي تحليل؛ او اعراب « سقياً لك » « وما اجمل السماء » قدّروا واوّلوا وتحايلوا . فقالوا إنَّ اصلَ الجملة الأولى بعد التقدير والتأويل هو « اللهم إسقِ سقياً ، هذا هو دعائي لك » واصلُ الجملة الثانية هو : « شيءٌ ما جمّل السماء» وهذا ليس بصحيح لاننا لا نخبر بل نتعجب . وهذا هو ما اتعب اهلَ العربية قديماً ، ولا يزال يُتعبنا حتّى هذا اليوم .

يظنُّ اصحابُ المنهجِ الوصفيّ الحديثِ في الغرب ، أنّهم اكتشفوا شيئاً عظيماً مُستحدثاً . وقد قُيّضَ لي ان اتحدّث في إحدى حَلَقاتهم عن ابنِ جنّي وعن نَظْرته الى العامل في اللغـــة ، واذكُر انَّ الاستغرابَ كانَ شديداً . وعندما تكلمت عن كُتيّبٍ صغيرٍ لابنِ مضاء القرطبي عنوانُه « الردُّ على النحاة » كانت الدهشة اشد واعظم . فان هذين اللغويين يعتبران بحقٍ مؤسّسي المنهج الوصفي .

ولكن مما يؤسفُ له أنَّ النحو الذي نعلّمهُ هو النحوُ الفلسفي

الذي تحدَّر الينا ، ولا يزالُ على ما كانه في العصورِ الاسلامية الأولى .

ولكنّ في مصرَ حركةً تستهدف إعادة النّظر في النحوِ العربي على غرار ما فعله إبراهيم مصطفى في كتابه « إحياء النحو » وعبدُ الرحمن أيوب في دراساته النقدية للنحو العربي ، وتمّام حسّان في كتابه « المنهجُ في الدراسة اللغوية » وعبدُ المتعال الصعيدي في كتابه « النحوُ الجديد » . كذلك في لبنان هناك حركةٌ تستهدفُ تيسيرَ تعليمِ العربيةِ على أسسٍ وصفية ، بغيةَ تحبيبِها الى التلاميذ ، وبغيةَ تقصيرِ المُدّةِ الزمنيةِ في تعلُّمها . إذ لا إنكار ان ما يُرهِقُ طلابنا في تعلمهم العربية هو محاولةُ القدماء وَضْعَ احكامِ اللغة على اسس فلسفية . وليس من علاج لهذه المشكلة التربوية سوى الأخذ بالمنهج الوصفي ، لا سيما وانه منهج لا يتعرّض إطلاقاً لجوهر اللغة اعراباً وبياناً . انما يتعرض لأسلوب التدريس ، وتدريسُ العربية عرَضٌ ، أمّا الجوهرُ فهو اللغةُ ذاتها .

* * *

الخط العربي

لا جدالَ في أنّ الخطَ العربيّ الخاليَ من الحركات ــ والحركات جزءٌ من المعنى كما في قَتَل وقُتِل ــ يُعيقُ الصغارَ والكبارَ عن القراءة الصحيحة . قال قاسم امين ما معناه انه ينبغي لنا ، نحنُ العرب ، ان نفهمَ اولاً ثم أنْ نقرأ ، وهو على نقيضِ الغايةِ من القراءة : القراءةُ اولاً ثم يُترجِمُ الذهنُ مـــا نقرأهُ الى معانٍ وصُوَر .

ولا جِدالَ كذلك في أنّ صِغارَنا يقضون مدةً اطولَ من المُدّة التي يقضيها ابناء الحرفِ اللاتيني لتعلّمِ القراءةِ . ولذا عُنِي المجمـــعُ اللغويُّ المِصْريُ منـــذ امد قريب بمعالجةِ مشكلةِ الخطِ العربي ، وخصّصَ جائزةً ماليةً لِمَنْ يتقدّمِ بأحسنِ اقتراحٍ من شأنه تَيْسيرُ الخطّ العربيّ بغيةَ القضاءِ على الأميةِ في وقت قصير . وقُدِّمَ للمجمع ما يقرب مِن مئتين وثلاثين ٢٣٠ اقتراحاً رُفضتْ جميعُها ، وفُتِحَ بابُ النِقاشِ لِمُقْتَرحَيْنْ فقط هما : اقتراحُ عبد العزيز فهمي الذي دافع عن الحرف اللاتيني ــ والغريب أنّ الاعضاء الغربيين في المجمع عارضوه بشدّة ــ واقتراحُ علي الجارم الذي تَقدّم

بخطٍ على نمط الخطِ الحبشيّ الذي تُلْصَقُ الحركةُ فيه إلى صورةِ الحرف .

ولسنا نطمح في صفحات قليلة الى حلٍّ مشكلةِ الخط العربي، كما اننا لَن نلتزم جانبَ دعوةٍ من الدعوات . فَغَرَضُنا في هذا الحديث المقتضب اولا ان نَذكُرَ شيئاً مُوجزاً عن اصلِ هذا الخطّ العربي ونشأته ، وثانياً ان نذكر ، وبشيء من الإسهاب ، ما قام به العربُ القدامى انفسُهم من محاولاتٍ لتيسير خَطِّهم .

سألَ العربُ : من أين أتانا الخطّ ؟ وفي سؤالهم اقرارٌ أنه لَيس خطاً أصيلاً بل مقتبساً .

والتاريخُ يعلّمنا حقيقةً عامة : وهي أنَّ كلَّ سؤالٍ عن غامضٍ يكونُ الجوابُ عنه اساطيرَ وخرافات ، فكأن المسؤول القديم كان يَستَنْكِفُ من أن يقول « لست ادري » بل كان الأمر على نقيض هذا اذ يقول : « نعم أدري» ثم يروحُ يضعُ القِصصَ والروايات تاركاً خَيَالَهُ للشرود .

ومن الأجوبة الطريفة عن هذا السؤال ما جاء في احدى الأساطير من انَّ الذين عَلّموا العربَ خَطّهم كانوا أناساً هلكوا في الجاهلية القديمة منهم ابو جاد ، او اباجد ، وهُواز او هاوز وحاطِي وكلمان ... الى آخره وواضح ان هذه الأسماء ليس لها مُسَمّياتٌ ، هي ترتيبُ حروف الهجاءالآرامية

القديمة بشكل كلمات يَسهُلُ على الصغار حِفظُها . فالحروف الآرامية — وعددها اثنان وعشرون — قد جمعت بحسب ترتيبها في كلماتِ « ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت » . وذلك بغيةَ حِفظِها على هذا الترتيب ، لانها كانت تُستخدمُ أيضاً للأرقام قَبْلَ اقتباسِ الأرقامِ الهندية . فكانت قيمةُ الألف واحداً والباء اثنين الى حرف التاء وقيمته العددية ٤٠٠ . والسريان هم الذين اقتبسوا الأرقامَ الهندية ، وعن السريان اخذَ العربُ هذه الارقامَ التي تعرف في الغرب بالأرقام العربية وَهْماً أنّها من وَضعِ العرب . أما نحن فنُعطي كلَّ ذي فضلٍ حقَّه مِنَ الفضل ، ونسمي ارقامَنَا الارقامَ الهندية .

ونعود إلى ابجد هوز ، لنقول إن صاحب الاسطورة توهم ان ابجد هو ابو جاد وهو بشر ، وكَلَمُنْ يصبح « كَلْمان » وله اربعُ بنات ، واحدةٌ مِنهن شاعرةٌ رَثَتْ اباها عند موته بقصيدة . وهناك اساطيرُ اخرى لا مجال لذكرها . وانما نحب ان نقف عند روايتين عن مصدر الخط العربي فيهِما حقيقةٌ تاريخية ، الواحدة منهما تقول ان العرَب اخذوا خطّهم عن اهل الحيرة في العراق ، وتقول الرواية الثانية إنّهم اخذوه عن الانباط ، سكّانِ شرقيّ الاردنِ القدماءِ الذين كانت عاصمتهم « سلع » ومعناها الصخر ، فترجمها الرومان الى لغتهم واصبحت البتّراء .

وسواءٌ أكانت نشأةُ الخطِ العربيّ الأولى في الحيرة ، أم

في بلاد الانباط ، فانّ الواقع التاريخي هو ان هذين الشعبين ينتميان الى الفرع الآرامي ، إذن ، فأصلُ الخط العربي آرامي . أمّا الآراميون فقد اخذوه عن الفينيقية ، وطوروه وعدّلوه في صُوَرِ حروفهِ ، ونشروه في جميعِ انحاء الشرق الأوسط .

كان هذا الخط الآرامي الذي اقتبسه العربُ قبل الاسلام خطاً يفتقر الى الإعجام والى الحركات . والإعجامُ معناه ازالةُ العُجمى عن الحرف المشتبَه به ، اذا كانَ قريبَ الصورةِ من حرفٍ آخرَ . فالباء والتاء والثاء والجيم والحاء والخاء لها صورةٌ واحدةٌ ، واذا لم نُعجِمْها ، أي نُنَقِّطْها ، كما فعل ابو الأسودِ الدؤلي فكيف نستطيعُ ان نقرأها قِراءة صحيحة . ان في العربية خمسةَ احرف ، إذا وقعت في وسط الكلمة تُكتَب على ما يسميه أهلُ الخَط « سناً نا » وهي ب ت ث ن ي وعندما نقرأ هذه الحروفَ في وَسْط الكلمة ، فاننا لا نقرأُ حروفاً ، لأن صورتَها زالت ، ولم يبقَ منها سوى « السن » الذي عليه النُقطة . فنحن في الواقعَ نقرأُ « نُقَطاً » . اما الحركات فكانَ امرُها يُتْرَكُ للقارىء . وهذه ميزة ، وفي الوقت ذاته نقصٌ ، تميزت به جميع الخطوط السامية . والحركاتُ جُزْء من بنية الكلمة ، كما انها جُزْء من المعنى فكيف يتسنى للصغير ان يقرأ كلمةً مثل كلمة « فَسَتَكونُ » المركبة من ستة حروف بدون حركات ؟ اذكر هذا لأنّ وَلَداً كانَ يقرأُ نصاً غير محرّك ، وعندما وَصَلَ الى هذه اللفظة « فَستَكون » توقّف

وتردّد وحاولَ مراتٍ ان يقرأها ولكنّ خوفه من المعلم اسدلَ ضباباً على عقله . وبعد عذاب قرأها فِسْتِكُونُ . فكانت نُكتةً ضحكنا لها طويلا . ولكن أحد الرياضيين أخبرنا ان إمكانات قراءتها رياضياً ونظرياً تفوق الالفَ عدا . وهــذا التلميذ المسكين وقع على إمكانيةٍ واحدةٍ من أصل الألف ، فقرأها فِسْتِكون .

وبعد ، فأكادُ أجزِمُ ان المعلمينَ في الكتاتيب المُلحقة بالمساجد هم الذين أدركوا قبل غيرهم خطورةَ هذا النقص في الخط العربي . والعلم فرضٌ على المسلم فكيف يتسنى لنا ان نعلم الأطفال قراءة نصٍّ لا إعجامَ فيه ولا حركات ؟

لقد نهد العربُ في بدء نهضتهم الحضارية الى معالجة هذا الخطّ بغيةَ تيسير القراءة . فكان اولُ إصلاحٍ أدْخِل على الخط العربي اضافةَ الروادف ، وهي حروف الثاء والذال والضاد والظاء والغين .

كان لدى السريان صورةٌ واحدة للتاء وللثاء انما كانوا يفرقون بينهما بنقطة . كذلك كان لديهم صورةٌ واحدةٌ للدال وللذال ، ولكنهم كانوا يفرقون بينهما بنقطة . غير ان العربَ ، بغيةَ التيسير ، وضعوا لهذه الأحرف صوراً خاصةً بها بالاضافة الى النقط ، وأردفوها بهجائهم ، ولذا سُميَت بالروادف . وفي حديثنا التالي سنذكر باقي الاصلاحاتِ التي ادخلها العربُ على خطّهم .

ذكر باقي الاصلاحات

كان الاصلاحُ الثاني إدخالَ الحركات . وقد تمَّ هذا الإصلاح على مرحلتين متفاوتتين في الزمن وعلى طريقتين مختلفتين . المرحلة الأولى تمّت على يَدَي ابي الاسود الدُؤلي الذي ذكرناه في حديثٍ سابقٍ وقُلنا إنّه لم يشتغل بالنحو ، بل كان همَّه ضبطَ قراءةِ القرآنِ الكريمِ الذي لم يكن في عصرهِ مُعْجماً ولا منقوطاً . وقد اتّبع السريانَ في نظام الحركات ، فوضع نُقطةً فوقَ الحرف دلالةً على الفتح ، ونقطةً تحتَه دلالةً على الكسر ، ووَضع نقطةً لدُنِ الحرفِ دلالةً على الضمّ .وصار يُعرف هذا النظامُ بنظامِ النَقْط ، فكانوا يتكلّمون عن نَقْط الفتح ونقط الكَسْر ونَقْط الضمّ .

أما المرحلةُ الثانيةُ فقد تمّت على يَدي الخليل بنِ احمد الفراهيديالذي رأى بثاقب بَصَرِه أنَّ الخطَّ العربيَّ أصبحَ مثقلاً بعدد كبير من النُقَط ، بعضُها لإعجام الحرف ، وبعضُها الآخرُ للحركة ، واذا كانَ الغرضُ من هذه الإصلاحاتِ ضبطَ القراءة وتيسيرَها فان هذا النظامَ من النُقَط قد عَسّر القراءةَ وعقّدها . فأدخل على الخط العربي ما كان يُسميه

بأبعاضِ الحروف . فاقتطع من الألف بَعضها وجعله رَمزاً للفتحة ، واقتطع بعضَ الياء وجعله رمزاً للكسرة ، وصغّر الواو وجعَلها رمزاً للضمة . وهكذا قلّل الخليلُ من عَدد النُّقَط في الخط ، واستعاضَ عنها بِصُوَر او رُمُوز يَسْهُلُ تمييزها .

واما الإصلاحُ الثالثُ فقد كان إعجامَ الحروفِ المتشابهةِ في صورها كالباء والتاء ، والعَينِ والغين . ولفظةُ «اعجام» تعني إزالةَ اللَبْسِ والابهام . وليس بمُستَبعدٍ ان يكون ابو الاسودِ هو الذي اعجمَ الحروفَ المتشابهةَ في صوَرها ، وذلك باضافة نُقطة او نقطتينِ او ثلاث بُغيةَ التفرقة بين مُتشابهين . ولكن الروايةَ تُصرُّ على أنّ الّذي أعجم الحروفَ العربية كانَ رَجلاً اسمهُ نصرُ بنُ عاصم بإيعازٍ من الحجّاج ، لأنّ موجةً من اللحن كانت قد فشت في العراق . وكان جيلٌ من القُرّاء قد مات . فكثُر الخطأ وعمّ التصحيف . والتصحيف هو وُقوعُ القارىء في التباسٍ عند قراءة حرْفَين متشابهين في الصورةِ اذا لم يكن هناك من اشارةٍ تُفَرّقُ بينهُما . فان كلمةً مثلَ كلمةِ « نتلو » كان يمكن ان تُقرأ تتلو ، او «نبلو» او يتلو . وقد ألّف حمزةُ الاصفهاني كتاباً كاملاً حولَ موضوعِ التصحيفِ وَوَسَمه « بالتنبيه على حدُوث التصحيف» وهو مخطوطٌ في مكتبةٍ من مكتبات طهران . كذلك ألّفَ

العسكري كتاباً آخر حول هذا الموضوع عنوانه « شرحُ ما يقَع فيه التصحيفُ والتحريف » .

اما الإصلاح الرابعُ فقد كان وضعَ علاماتٍ ورموزٍ لضوابط القراءة وهي الشدّة ، والمدة ، والسكون ، وعلامةُ الوصل . ففي الكلمات العربية حروفٌ مشدّدة كما في « احبّ » وهناك ألفٌ ممدودة كما في آمَنَ ، وهناك مقاطعُ في الكلمة ساكنة إذن ، قال الخليل ، يجب وَضْعُ رموزٍ لها لتكونَ في عون القارىء ما دامَ غرضُنا التيسير وضبطَ القراءة . فوضع فوقَ الحرف المشدّد راسَ شين ، وهو اختصارٌ للفظة شُدّ ، أي صيغةِ الأمر من فعلِ شدّ . ووضع فوق الألف « مُدّ » صيغةَ الأمر من مَدّ وانك لترى (الشدّة والمدّة) في بعض المخطوطات العربية القديمة بشكلهما القديم . اي «شُدّ»و«مُدّ» واقترحَ الخليلَ راسَ الخاءِ علامةً للسكون ، وهو اختصارٌ للفظة « خَفّف » او تخفيف . وقبلَ ذلك لم يكن للسكون من علامة . فقد اعتبرَ أبو الاسودِ إهمالَه علامةً له . اما علامة الوصل فهي رأسُ الصادِ المقتطعةِ من صيغة الأمر « صِل » ولا تنسَ ان الحروف العربية تلينُ للفن الجميل ، والكتابةُ العربية من الفنون الجميلة ، ولذا راحَ الخطّاطون يُحسّنون اشكالَ الضوابط كي تنسجمَ مع سائر الحروف فتنتفي النُتوءاتُ والمتنافرات حتى وصلت الينا باشكالها الحاضرة .

واما الاصلاحُ الخامسُ فكانَ وضعَ رَمْزٍ او صورةٍ خاصَّةٍ بالهمزة ، وحرفُ الهمزة صوتٌ لغويٌّ كثيرُ الورود في أبنيةِ الكلمات العربية . ولا تعجبنّ إذا قلنا لك إنّ العربَ ظلوا قرابةَ قرنين وليسَ لهم في خطّهم رمزٌ ، او صورة ، لهذا الحرف الكثير الورود ، بل كانوا يرمزُون اليه بدائرتين صغيرتين تُكتَبُ الواحدةُ فوق الأخرى ، او بدائرةٍ كبيرةٍ تُكتَب بمِداد يختلفُ لونُه عن المداد الذي يُكتَبُ به سائرُ النصّ فاقترحَ الخليلُ رأسَ عين مُصَغّر ، ولأنّه كانَ مصغراً ، وخَوفاً من الالتباس ، فانه كَتَبَ رأسَ العين على حرفٍ يجانسُ حركته . ذلك أن في الخط العربي نُقَطاً للإعجام ، ورموزاً للحركات وإشاراتٍ لضوابطِ القراءة ، فخشي الخليل ان تَضيعَ الهمزةُ بينها . فأراد الفاتَ النظرِ اليها ، فكتبها على ما نُسمّيه كرسيّاً للهمزة . ثم عقّد الخطّاطون القواعدَ والأحكامَ المتعلّقةِ بالكرسي . اذكر ان اتاني يوماً رجلٌ وبيدَه خريطةٌ كبيرةٌ مطويةٌ بشكل كتابٍ صغير الحجم كالخريطة التي يَستعمِلُها السائح . وعندما نَشَرَ الخريطةَ أمامي رأيتُ صورةَ شجرةٍ متفرّعة الأغصان ، وكل غُصنٍ يُشير الى قاعدة من قواعدِ كتابة الهمزة . ورأيه انها وسيلةٌ تعليميةٌ تُسعفُ الاولادَ في تعلّمهم قواعدِ الهمزة ، وطلبَ الي ان اقرّظ عمله وان اكون في عونه على رواجه . فتبسّمت وقلت له : يا رجل لقد جئت رجُلاً من دُعاةِ التيسير لا التعسير . كان الخليل يَهْدُفُ الى التبسيطِ ، فراح الناس بعده

يبغون التعسيرَ إرضاءً للفن . ولو أنّه كتبَ رأس عينٍ مكبّر ، واقترح أن يُكتَبَ منفصلاً لَكانَ وَفّر عليكَ مؤونةَ رسمِ هذهِ الشجرة ، ولكانَ وَفّرَ على المعلمينَ تعليمَ الأولادِ عشراتِ القواعد .

وهكذا بفضل أصحاب التيسير من القدامى وَصَلَنا خطٌ تامٌ في إعجامِه ، وحركاتِه وضوابطِ القراءة فيه . ولكن هذه الاصلاحات لا تنفي وجوهَ الصعوبة في القراءة سواءٌ أكان النصُّ محرّكاً ام ساكناً . هذا عدا عن أن طباعته تواجهُ صعوبات ايضاً ، فان تكاليفها مرتفعة جداً سيّما اذا كان النص محرّكاً مما يجعلُ الكتاب العربي غالي الثمن .

* * *

مفردات العربية :

الترادف والاشتراك والتضادد

اللغةُ العربيةُ اغنى اللغاتِ السامية بمفرداتِها . ومعجمُها من أضخم معاجمِ اللغات ، ولا نستثني معاجمَ اللغاتِ الغربية الراقية . ونظرةٌ في المعجم الذي وضعهُ ابنُ منظورِ الإفريقي ، والمعروفِ بلسان العرب ، تُقنعُ من يشك في صحة قولنا .

إن هذا الثراء اللغويَّ العظيم ، دليلٌ قاطعٌ على حيويةِ الحضارةِ العربية التي تستلزمُ لغةً واسعةً للتعبيرِ عنها ، كما أنّه دليلٌ على قوةِ الإبداعِ في التعبيرِ الجميل .

والعربيُّ يُحبُّ الكلمة ، لا بل يُقدّسُها . وهذا ظاهر في التأنّقِ اللغوي في الأدب والشعر . ولذا حرِص في وقت مُبكّر على جمع مفرداتِ اللغةِ ، وتفسيرها خوفاً عليها من الضّياع . وكانَ بعضُ لغويي العرب يقولونَ إنَّ ما وصلنا هو جزءٌ قليلٌ من لغة العربِ .

ولكنَّ هذا الجزء القليلَ الذي وصلنا ، يحتوي على عدد ضخم من المفردات التي نُسمّيها مفرداتٍ مهجورةً أو مُماتة لعدمِ الحاجة اليها

في يومنا هذا . ويُقدّر بعضُهم أنَّ رُبْـعَ القاموسِ العربي القديم ، هو من المهجور وقد يضيق طُلاَّبُنا ذَرعاً بكثرة المهجور ، ويُؤثرون أن يَروا مصطلحاتٍ علميةً جديدةً تحتلُّ محلّها . ولكنَّ المستشرقين لا يُقرُّونهم على هذا الرأي ، فإن القاموسَ العربي احتفظَ بموادَّ لغويةٍ قديمة لا نَجِدُها في معاجمِ اللغاتِ السامية ، ولولا هذا المهجورُ المحفوظُ لَما استطاعَ علماء الاستشراق تَفْسيرَ عددٍ كبير من الكلمات الواردة في النقوش القديمة فقد ذكر مثلاً عددٌ من المؤرخينَ العرب أسماء الأشهر الجاهلية مثل وَاغِل وناجِر وناطِل وهي اسماءٌ مهجورةٌ حلّت محلّها الأسماءُ الإسلاميةُ مثل شعبان ورمضان . ولكنَّ مُستشرقاً استعانَ بها لتفسيرِ اسماء الأشهر اليمنية الواردة في النقوش قبل الاسلام . واما اتّهام القاموس العربي بأنّهُ يَفْتَقِرُ الى المصطلحِ العلمي ، فليس الذنبُ في هذا ذنبَ الذين جمعوه ، لانهم عندما جَمعوه لم يكن هناك عِلمٌ بمعناه الحالي .

ذكر المستشرقُ الغربيّ دي هامر أنّه توصلَ إلى جمع ما يقرُبُ من ستةِ آلافِ لفظةٍ تتعلقُ بالجمل ، فظنَّ بعضُهم خطأً أنَّ للجملِ اكثرَ من خمسةِ آلاف اسم . والواقعُ أنَّ هامر لم يَقتصر بحثَه على اسماء الجملِ ومُرادفاته ، بـل تناولَ الجملَ وشأنه في حياة الإعرابي . فالجملُ مصدرُ عيشه ، ومبعثُ إيناسهِ في وحشته ، ومطيتهُ التي تستطيعُ عبورَ الصحارى

فليس بمستغرب أن يكونَ جزءٌ كبيرٌ من لُغةِ الإعرابي متعلّقاً بشؤونِ الجمل . فإنَّ الناقةَ في مُقدّمة القافلةِ الواردةِ الى الماء تُسمّى « الميراد » وهي لفظةٌ مشتقةٌ من الوِرْدِ وهو إتّيانُ الماء للشرب . واذا كانت تَسيرُ في قَلْبِ القافلةِ فهي الدّفُون ، وفي اولّها فهي السلُوف . والدفونَ والسّلوف من دَفَنَ وسَلَفَ بمعنى تقدّم . فانت ترى أنَّ هذهِ المترادفاتِ ليست اسماءً بل نعوتاً وصفات . والشيء يُوصف بألفاظٍ عديدة ، فلا عجب اذا وقع نظرُنا على مُؤلّف للفيروزبادي عنوانه « الروضُ المَسلوف ، فيما له اسمانِ الى ألُوف » كما اننا لا نعجب من ان احدهم جَمَعَ للأسدِ خمسَ مئة اسم ، وللحية مئتين ، وللداهية اربعَ مئة ، حتى قيلَ إنَّ حفظَ اسماء الدواهي من الدواهي . وجَمَع آخرُ سبعينَ اسماً للعسل . وهذا هو الترادف في اللغة ، أي ورودُ أكثرِ من لفظةٍ واحدةٍ للشيء الواحد .

وقد انكرَ بعضُ القدماء وقوعَ الترادُف ، وقالوا إنَّ الإنسانَ الأولَ وَضعَ لفظاً واحداً لكل مُسَمّى ، وإذا كان له اكثرُ من لفظٍ واحد ، أي مُرادِف ، فانه من نوعِ احلالِ الصفة محلَّ الموصوف او من نوع تداخلِ اللهجات العربية .

ذكرَ ابو عليٍّ الفارسي أنّه كانَ في مجلسِ سيفِ الدولة . فقال خالويه ، وهو لغوي معروف ، إنّي احفظُ للسيفِ

خمسينَ اسماً ، والتفت زَهْواً نحو ابي علي ، فابتسم ابو علي الفارسي وقال : اما انا فلا احفظُ للسيف سوى كلمة واحدة هي السيف . اي أنّ ابا عليٍّ كان يُنكر وقوعَ التّرادف ، وكان يعتبر كلمة مثل كلمة الغيث نعتاً او صفةً للمطر ، لانه غوثٌ من السماء ، فحلّت الصّفةُ محلَّ الموصوف ، عن طريق المجاز والكناية . وممن كان يُنكر التّرادفَ في الأفعالِ شيخُه ثعلب ، فانه كان يقول إنّ نظرَ وتطلّع ورمق ورنا وحدجَ ليست مترادفاتٍ بالمعنى الضيق ، بَل إنّها متقاربةٌ في المعنى ، ولكن بينهما خلافاً خفياً لا ستبينُه سوى الراسخين في علم اللغة . وقُل مثلَ هذا في رَقَدَ ونامَ وَهَجعَ وَوَجَدَ الشيء وُجداناً اذا عثر عليه ، وَوَجَد عليه مَوْجِدَةً غضب عليه ، ووجد به وَجْداً هامَ به والذي يفرّق بينها المصدرُ وحرفُ الجر .

وهناك ظاهرةٌ لغويّةٌ اخرى تشتَرك فيها العربيةُ مع سائر اللغاتِ ، وهي ظاهرةُ وُرُودِ الاضداد . والتضادُد وُرود مَعْنَيَين متضادين للفظة الواحدة ، مثل السُدفة ، فهي الظلمة والضوء ، والذَفر وهو الرائحةُ الطيبة والخبيثة ، والسليم ، وهو السليمُ والملدوغُ والصريم ، وهو الليلُ والنهارُ . وعددُ الاضداد في العربية يفوق الاربعَ مئة لفظة ، جُمِعَتْ كلُّها ودُرست . فمنهم من انكرها مثلُ ابنِ دُرُسْتَويه ، ومنهم من قبل بعضها ورفض البعض الآخر على اساسِ من أنّ التضادد لا يُمكن أن يقع في اللفظة الواحدة ، ولكن اذا وقعَ فيجب

ان يكونَ لذلك اسباب منها وَضْعُ الكلمةِ مَوضِعَ التفاؤل والتيمُّن ، مثل السليم التي اوردناها فان الملدوغَ يُسمَّى السليم ، تفاؤلا بانه سيسلم . ويُسَمَّى العطشانَ بالناهل تفاؤلا وتيمناً . ومن هذا القبيل ، لفظةُ المولى التي تُطلَقُ على العبد وعلى السيِّد ، وهذا حَمْلاً على من يُسمَّى الأعمى تأدُّباً بالبصير ، وحَمْلا على من ينادي الزنجيَّ بقوله يا أبيض فتصبح لفظة أبيض في هذا الاستعمال من الأضداد لانها تعني الأبيض والأسود . ومن اسبابِ التضادِ التقارُبُ في المعنى . فالصريمُ هو النهار لانه ينصرمُ من الليل ، والليلُ صريمٌ لأنه ينصرمُ من النهار . أضف الى هذا كَسَلَ العقل ، وتراخي الذِّهنِ عندَ العامة من الناس . فقد حَسِبَ جامعُ المُعجم لفظة الذّفر من الأضداد ، لانها تعني اشتدادَ الرائحةِ طيبةً كانت أم خبيثة . فان رجلين يسمعان لفظة الذّفر ، وهي اشتدادُ الرائحة ، طيبةً كانت أم خبيثةً فيفهما احدُهم أنّها الرائحةُ الخبيثة ، ويفهمها الآخر انها الطيبة ، فيأتي جامعُ المُعجمويصنفها مع الأضداد ، كما فَعَلَ اصحابُ اللفظة بلفظة قلت وهو نُقرة صغيرة في الصخر يجتمع فيه الماء فيشربُ العصفور منه ، وقال آخر هو النُقرةُ العظيمةُ يَجتمعُ فيها الماء فيغرَقُ فيها الفيل . فقال احد جامعي اللغة هي ضد إنَّ هذهِ المشكلاتِ اللغوية من المفردات المَهجورة ، والمبهمة ، والمترادفة ، والمشتركة والمتضادّة يجب ان يَحلّها قاموسُ اللغةِ العربيةِ العتيدُ الذي لم يؤلف بعد . وَهُوَ موضوعُ حديثِنا التالي .

المعجم العربي

معجم اللغة ثبت بمفرداتها ، وتفسير معانيها ، ووجوه استعمالها كما وردت في مدوّن اللغة خلال العصور الأدبية.

ولكل لغة انواع عديدة من المعاجم ، منها ما وضع لطلاب المدارس الثانوية ، ومنها ما وضع للطلاب الجامعيين ، ومنها المطوّلة لأهل الاختصاص . وقد ظهرت في مكتبتنا العربية جملة صالحة من المعاجم المختصرة للطلاب ، وعلى الرغم من أنها وضعت على أساس المعاجم المطوّلة القديمة ، فإنّها احسن ترتيباً للمفردات ، واسهل استعمالاً ، واقل اشتمالاً على المهجور والممات .

لن نتناول هذه المعاجم في حديثنا ، بل يهمنا أن نلقي نظرة عجلى على تطور المعاجم العربية المطوّلة ، وأن نأتي على ذكر ما يؤخذ عليها من مآخذ ، لا انتقاصاً من فضل اصحابها ، بل حرصاً على تلافيها عند وضع المعجم العربيّ المرجع الذي لا نعتقد أنّه قد وضع بعد .

لكل لغة راقية معجمها المرجع الذي ينعتونه في

الغرب بلفظة لاتينية «Thesaurus» ومعناها الكنز والذخيرة . فللانكليز قاموس اوكسفورد وللفرنسيين لاروس . واما نحن فعندنا عـــددٌ كبير من المعاجم المطوّلة ، ولكننا لا نعتقد انها تامةُ التأليف بحسَبِ المستوى العلمي اللذي يقتضيه وضعُ المعجم المرجع . ذلك لأنَّ معاجمَنا القديمةَ كانت عملاً فردياً قامَ به افرادٌ لا يَسَعُ المرءُ الا أن يَنْحَنِي احتراماً وإجلالاً لعلمهم وبجلدهم العجيب . ولكنَّ المعجمَ المرجعَ لا يُمكن أن يكون عملا فردياً بل جَمَاعياً يشتركُ فيه العالمُ والفيلسوفُ والأديبُ واللغوي . لأن اللغةَ مستودَعُ فِكر الأمة ، وليس في مقدور امرىء ، مهما اوتي من المعرفة والجلد ، أن يُلِـمَّ بمعرفة معاني مفردات اللغة . فعندما يقول صاحب المعجم عن كلمة ما أنها « حيوانٌ » ، وعن كلمة أخرى انها نَبْتٌ يعيش في الصحراء، فانه لا يكون قد أوضحَ معنى الكلمة ، بل يكون قد تركها على غموضها — والناس يتعمّدون الى المُعجم لإزالةِ اللّبـــس والغموض .

اولا : قضية ترتيب مفردات اللغة .

ثانياً : قضية الاحتجاج لحلِ مشكلة المهجور الغامض .

معاجمنا الحالية مرتبةٌ على احدى طريقتين : اولا بحسب الحرف الأول من الجذر ، وتحت الجذر تأتي بقية المشتقات منه فكلمة « استعلامات » ينبغي لك ان تفتش عنها تحت مادة

علم . ثانياً بحسب الحرف الأخير من الجذر فان كلمـة « استعلامات » تجدها في لسان العرب تحت باب الميم وفصل العين ولفظة مكتبة تجدها في باب الباء وفصل الكاف . وعندنا أنّ المعجَم المرجعَ يجب ان ترتب فيه المفردات بحسب حروف الهجاء فلفظةُ استعلامات يجب ان ترد في باب الهمزة ولفظة مكتبة في باب الميم على ما فعله صاحب معجم عصري عنوانه « الرائد » .

واخطر شأناً من قضية ترتيب مواد المعجم قضية الاحتجاج، اي الاستشهاد ان اللفظة المعنية قد وردت في نص أو سُمِعت عن لسان عربي فصيح. واذا حللنا قضية الاحتجاج نستطيع حلّ مشكلة الممات والمهجور . اذ ذكرنا سابقاً ان رُبْع مُعجمنا مـن الممات المهجور في يومنا هذا . وأمثّل على ذلك بلفظة حُوب او حَوْب .

كنت أقرأ مع طلابي نصاً سريانياً وردت فيه لفظة « حَوْبا » وقلت لهم ان هذه لفظةٌ عربيةٌ ايضاً وردت في القرآن الكريم : « انه كان حُوباً كبيراً » كما انها وردت في حديث شريف بمعنى الاثم والخطيئة . وكان امامَنا معجمٌ عربي رجعنا اليه للتحقق من معنى حُوْب وحَوْب فأحصينا اكثر من ثلاثين معنى لهذه اللفظة منها : الاخت ، والبنت ، والحاجة ، والمسكنة والهلاك والحزن والضرب والفن والضخم من الجمال وزجر

الجمل ورقة فؤاد الام وهي معان متباعدة يذكرها صاحب المعجم دون احتجاج . وعندي ان افضل اسلوب يتبع في وضع معجم مرجع هو اعادة جمع المفردات كما وردت في مدون اللغة ، فاذا كانت لفظة حوب وردت بمعنى الاخت او الضخم من الابل فاننا نثبتها والا فاننا نهمل امرها او نضعها في ملحق لاهل الاختصاص ونقول وردت هكذا في المعاجم القديمة .

***

ازدواجية اللغة واثرها في المجتمع

يتكلمُ العربُ في جميع اقطارهم لَهجاتٍ عربيةً اقليميةً في حياتهم اليومية ، واما في حياتهم الفكرية ، فإنهم يعتبرون العربيةَ الفصحى لغتَهُمُ الرسمية . فهم ، من هذهِ الناحيةِ ، مزدوجو اللغة .

وقد اختلفَ الناسُ قديماً ، ولا يزالون يختلفون ، حولَ قضيتَين تتعلّقانِ بالعامية ، الأولى منهما تدورُ حول نشأة اللهجة، والثانيةُ تدور حول هذا السؤالِ : هلْ تُعتَبَرُ العاميةُ لغةً قائمةً بذاتها ؟ وحلُّ المُشكلةِ اللُغويةِ التي تُثارُ من حينٍ الى آخر ، يَتَوَقّفُ الى حدّ كبيرٍ على الإجابة عن هذَين السؤالين .

أما فيما يتعلّقُ بنشأةِ اللهجة فقد بَسط العربُ الاسبابَ والعِلَلَ اكثرَ مما يتحمّلَهُ الواقعُ العلميُّ والتاريخيُّ . فقد قالوا إنّه كانَ لهم يَوْماً لغةٌ واحدةٌ هي لغةُ الشعر الجاهلي ، ولغةُ القرآن الكريم ، يتكلم بها العربُ في حياتِهِم اليوميـة ، ويُعَبِّرون بها عن حياتهم الفكرية . وعندما انْضَوَتْ تحتَ لواء الاسـلامِ شعوبٌ وامـمٌ من غيرِ العربِ نشأ اللّحْن ،

وعمّ الخطأ ، وفَسَدَتْ ملكةُ اللغة ، فظَهرت اللهجات . وهذا تَبْسيطٌ لا يُقرُّه علمُ اللسان الحديث، فضلاً عن انّ فيه تناقُضاً فاضحاً . فقد تكلّمَ القُدامى عن وُجود لهجات عربية عديدة وَحّدت بينها لُغَةُ قريش . وفي النحو العربيّ فُروقاتٌ مردُّها الى اختلاف اللهجات العربية ، كما أنّ في المُعجم دلائلَ عديدةً على وجود اللهجات . وهكذا يَنْتَفِي القولُ بأنّه كان للعربِ لهجةٌ واحدة .

ان نُشُوء اللهجات في جميع اللغات مردُّه الى مبادىء طبيعية . ذلك انك اذا تركت اللغةَ للناسِ يتكلمونَ بها على سَجيتهم فإنها على مَرّ الزمنِ تصبح عُرضةً للانحلالِ والتجزء من جرّاء مَيْلِ الناسِ الى السهل ، وبسبب مجانبتهم الصّعْب . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن اللغةَ ليست دوماً تعبيراً عن الفكر ، بل أداةٌ للتعبير عن الشعورِ . اللغةُ للغناء ، والرقص والبُكاء ، والمشاجراتِ ، وتصريفِ الشؤون والتحايل على كَسْبِ العيش ، وفي ظُروفٍ كهذه يَتَحَلّل المرءُ من قيودِ اللغةِ ويتكلّم على هواه . فمثلاً لا يُمكن لرجلين ان يتشاتما ، وان يتسابّا بلغة فصيحة معربة. أما السؤال : « هل العاميةُ لغةٌ قائمةٌ بذاتها » . فإن اكثرَ العرب اجمعوا على أنها ليست لغةً قائمةً بذاتها ، بل تُمَثّلُ انحرافاتٍ بسيطةً عن النّهج اللغوي الفصيح . والوَهْمُ الذي يقعون فيه هو حِسْبَانُهُمُ اللغةَ مجموعةَ مفردات . نعم ،

بين العاميةِ والفصحى مفرداتٌ عديدةٌ مشتركة ، ولكنَّ اللغة ليستِ القاموس . فإنك تستطيعُ ان تحفظ قاموسَ الألمانية غيْباً ، واذا كنت لا تعرفُ التركيبَ والتصريفَ والمُصطلح ، فإنك لا تستطيعُ ان تطلُبَ أكلاً في مطعم الماني . وان اللغة بتراكيبها . ونحن مِمّنْ يرى أنَّ العاميةَ بَعُدَتْ عن الفُصحى في صَرفها ونحوِها ومصطلحها واسلوبِ التعبير فيها الى حدٍّ يُمكن حِسْبَانُها لغةً قائمة بذاتها . والذين يُنكرون كونها لغةً قائمة بذاتها هم الذين تَمَرَّسوا بعلوم اللغةِ العربيةِ زمناً طويلاً بحيث يستطيعُ الواحدُ منهم أنْ ينتقلَ من العاميةِ الى الفصحى بيُسر . ولكنَّ مثل هذا القول لا ينطبقُ على عامة العرب . لهذه الازدواجية في المجتمع اثرٌ بالغٌ في جميع نواحي الحياة الفكرية والاجتماعية ، والأخلاقية ، يظهر ذلك في التفكير ، وفي مشكلات تعلم القراءة في الروضة والابتدائية ، وفي تكوين الشخصية الفردية ، وفي تقدُّمِ الفنونِ الجميلة ، ولا سيما المسرح ، كما انه يظهر في تصرُّف الناس وسلوكهم . اخبرني قاض انه سأل فتى قتل اختَه : ولماذا قتلتها ؟ فأجابه شعراً ولكن بلغة سقيمة :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

هنا رجلٌ يتصرف اخلاقياً بِحَسْب ما تمليه عليه قوالبُ

اللغة ، كما فَهِمَ تلك القَوالب . وكم قَتَلَ هذا البيتُ من الشعر من الاخوات والامهات .

ليس باليسير تناولُ هذه الموضوعات الخطيرة في دقائقَ قليلة ، وانما نشير الى بعضها بايجاز كليّ .

من القضايا الفَلسفية التي لا تَزالُ مدارَ جدلٍ ونقاشٍ قضيةُ العلاقة بين الفكر واللغة . هل الفِكرُ هو اللغةُ ذاتُها ؟ وهل يُمكنُ التفكيرُ بدونِ لغة ؟ اي ، هل هُناك فِكرٌ مجرّد قائِم بذاته ؟

ان هذا الموضوع يَقع في حَقْلَي الفلسفةِ وعلمِ النفس . اما نحن فيهمنا ان نقرر واقعاً يَقبلهُ اهلُ الرأي ، وهو أنّ اللغةَ اساسٌ للتفكير وسبيلٌ له ، وإذا لم يكن هُناكَ توافقٌ تامٌّ بين الصورةِ الذهنيةِ التي تَنْطوي عليها الكلمة ، وبين أسلوبِ التعبيرِ عنها ، فإن الفكر يُصابُ بشيءٍ من الصدمةِ او التعثّر ، فالوَهن . ونخشى ان يكونَ انتقالُ التلميذِ العربي من لغة سيّالةٍ مَرِنَة الى لغةٍ أخرى ليس بينها وبينَ فكره هــذا التوافــقُ العَجيبُ ، سبباً من اسباب الضعف في التفكير . وقد أجرينا بعضَ الاختبارات على اولاد المدارسِ الابتدائية عندما كنا نَبْحَثُ عن أفضلِ السُّبُلِ للانتقالِ بالوَلد من لغةِ البيتِ الى لغةِ المدرسةِ . كنّا نستَمِعُ اليهم يُحدثُونَنَا عن دروسهم في الحساب والجغرافيا والتاريخ . فكانت لغةُ التعبير الطبيعيةُ لديهم العامية ، وكانت معلوماتهم صحيحة ،

فكانَ احدُهم يقول بيُسر « سبعة من ١٣ ستّي و ٩×٦ = ٥٤ » ولكن عندما كان يُحاولُ ان يقولَ هذا بلغة صحيحة كان يتَعَثّر لأنّ الفكر ينصرفُ عن المعنى الى الشّكل الذي به يعبّر عن المعنى . هذا فضلا عن أنّه لايعرف أحكامَ العَدد في العربية .

انما طبيعيٌ أن يُصبحَ الانتقالُ من العامية الى الفصحى، على مَرّ الزمن ، وبَعْدَ التَمرُّسِ الطويل ، امراً ميسوراً لَدى الكثيرين منا ، ولكن على حساب الزمن الذي هو عنصرٌ ثمينٌ في الحياة العصرية .

ولازدواجية اللغة اثرٌ في تكوين الشخصية وفي المجتمعاتِ الراقيةِ تَحرَصُ الأمُ على أن تُعلِّم طِفلها ما يجب ان يقولَه، وما يجب أن يتَجنَّب قولَه . واخشى ان تكونَ الازدواجيةُ عندنا سبَباً في إهمال تربيةِ الطفل تربيةً لغويةً ، على اساسِ من أنّ العاميةَ ليست اللغةَ الراقيةَ .

وكلمة اخيرة وهي أنَّ المشكلةَ اللغويةَ ستبقى معَنا زمناً الى ان تَنشأ لغةٌ بَدأت ملامحُها تظهرُ في المُحاضرةِ ، وفي قاعاتِ الدرس وفي الاذاعاتِ . هي لغةٌ وَسَطٌ لا بالمتقعرة المُثقلةِ بالأحكامِ ولا هي باللهجة الإقليمية المبتذلة . إنّ حلّ القضيةِ اللغوية رَهْن بالمستوى الثقافيّ لدى الأمّ في البيت ، والمُعلّمِ في المدرسة .

دراسة اللغة

منهجان لدراسة اللغة :

الفلسفي التاريخي والوصفي التقريري

تجريد الصرف والنحو من الفلسفة والمنطق

نشطت في الآونة الاخيرة حركة لغوية تستهدف تجريد الصرف والنحو العربيين من أثر الفلسفة والمنطق ووضع اصولهما على اسس جديدة تتسم بميسم الوصفية او التقريرية ، والوصفية ، او التقريرية، منهج في دراسة اللغة يعنى بوصف المظاهر اللغوية لا بايجاد الاسباب والعلل لها .

هنالك منهجان لدرس اللغة : فلسفي تاريخي ، ووصفي تقريري . اللغة العربية لغة معربة ، شأنها في ذلك شأن لغات عديدة تتغير فيها اواخر الكلمات تبعاً للوظيفة في التركيب :

ولدٌ	ولداً	ولدٍ
رجلانِ	رجلَينِ	
معلمونَ	معلمينَ	

ابراهيمُ	ابراهيمَ	
مؤمناتٌ	مؤمناتٍ	
فتىً	فتىً	فتىً
محامٍ	محاميا	محامٍ
يفعلون	يفعلوا	

لك ان تقف حيال ظاهرة الاعراب موقفين ، موقف الفيلسوف الذي يسأل : لماذا الفاعل مرفوع ، ولماذا علامة الرفع الضمة (او الالف او الواو او اثبات النون في الافعال الخمسة)، لا الفتحة او الكسرة ؟ وقد اجاب العرب القدماء عن هذه المسائل وعن غيرها بايراد علل اولى ، وعلل ثوان ، وعلل ثوالث(١). انك اذا سألت اسئلة من هذا النوع وحاولت الإجابة عنها تكون فيلسوفاً يعنى بالعلل والاسباب التي تكمن وراء الظواهر . ولك ان تقف حيال هذه الظاهرة اللغوية موقف الواصف المقرر الذي يقول : الفاعل (او المبتدا) في التركيب العربي مرفوع وعلامة الرفع ضمة او الف او واو ، وتقف عند هذا الحد .

ولكن يظهر ان لغويي العرب القدامى اخذوا بمبدأ العلية كما

---

(١) سنمثل للقارىء عن العلل هذه في سياق البحث عندما نبحث فلسفة العلية .

هو عند ارسطو ، فانه مبدأ يشمل العلة والحكمة . يموت رجل فتسأل : بماذا مات ؟ فيقال لك بذات الرئة . هذه هي علة الموت اما اذا سألت ؟ لماذا مات ؟ ما الحكمة في موته ؟ فان سؤالك هذا يقع في نطاق الحدس والتخمين والرأي الشخصي . وليس في منهج دراسة اللغة الحديث مجال للحدس او التخمين . اصحاب هذه المدرسة الجديدة يحللون اللغة الى عناصرها تماماً كما يحلل الكيماوي مادة ما ، فيدرسون اصواتها وتصريفها واشتقاقها واحكام تركيبها بناء على انواع الجمل التي ترد في اللغة ،ويضعون الاحكام بشكل وصف وتقرير لواقع . فان « قام » اصلها قام لا « قوم» . قوم هذه من تعليلات اللغوي كي يستقيم امر « قام » مع الميزان فعل ، الذي اتخذه مسبقاً ميزاناً لجميع الافعال الثلاثية . الواصف المقرر ، اي اللغوي الذي ينتمي الى المدرسة الحديثة يقول :

لاحظنا ان الفعل الثلاثي في العربية يأتي على شكل : كتب قام باع مد قضى غزا نسي ، ولكل من هذه الفئات تصريف خاص قائم بذاته .

هذا المنهج الجديد في دراسة اللغة ينبغي الا يعتبر انتقاصاً من الجهود الجبارة التي قام بها القدامى ، ولا ذماً لمنهج في البحث كانوا يؤمنون بصحته وفضله . نحن الذين نعرف شيئاً عن هذه الجهود كما تتراءى لنا في مخلفات الصرفيين والنحويين لا نتمالك

عن ابداء اعجابنا واكبارنا للعمق والشمول اللذين يظهران في هذه الجهود اللغوية . غير ان الروح العلمية التي تتصف بالموضوعية ومتطلبات المدرسة الحديثة ، وانصراف الطلاب الى تحصيل علوم متعددة ، هذه وغيرها تملي علينا وجوب اعادة النظر في تدريس اللغة العربية على اسس من شأنها ان تقلل اولا عدد السنين ، وان تحبب ثانياً درس العربية الى نفوس الطلاب .

يتزعم هذه الحركة اللغوية الجديدة في بلادنا جماعة ممن درسوا علم اللغة الحديث في الغرب ثم عادوا الى بلادهم ليطبقوا هذا العلم الجديد على العربية كما فعل ، مثلا ، الدكتور تمام حسان في كتابه القيم « مناهج البحث في اللغة » والدكتور عبد الرحمن ايوب في كتابه « دراسات نقدية في النحو » والدكتور ابراهيم انيس في كتابه « من اسرار اللغة » والاستاذ عبد المجيد عابدين في كتابه « المدخل الى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية » وامين الخولي في مقال جليل القدر عنوانه « هذا النحو » في مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة ، تموز ١٩٤٤ ص ٢٩ — ٦٨) والاستاذ الكبير ابراهيم مصطفى في « احياء النحو » والاستاذ عبد المتعال الصعيدي في كتابه « النحو الجديد » وكما حاولنا نحن في محاولتنا المتواضعة في كتاب « تبسيط قواعد اللغة العربية : اقتراح ونموذج » واخيراً محاولة الاستاذ

يوسف السودا في كتابه « الاحرفية » (١) .

ولا تحسبن هذه الحركة اللغوية حديثة العهد . انها حركة لغوية قديمة . فاني لا اعرف احداً ممن بحثوا المشكلة في الآونة الاخيرة لا يذكر فضل ابن جني وابن مضاء القرطبي في حملتهما على فلسفة العلة في النحو . وفي ملاحظات بعض اللغويين القدامى ما يفهم منها ان اصحابها لم يطمئنوا الاطمئنان كله الى علة النحوي ومنطقه .

فقد قالوا :

« اوهى من حجة نحوي »

وقالوا :

« العلة النحوية كالوردة تشم ولا يضغط عليها » .

وعندي ان مؤسس المدرسة الوصفية يجب ان يكون عربياً هو ابن مضاء القرطبي ، فانه حاول ان يقضي على فكرة العامل والعلة في كتابه الصغير الحجم الكبير الفائـــدة « الرد عـــلى النحاة » .

---

(١) وعلينا ان نشير الى مقترحات اللجنة التي الفتها وزارة المعارف المصرية ـ طه حسين ، احمد امين ، ابراهيم مصطفى ، علي الجارم ، محمد ابو بكر ابراهيم ، وعبد المجيد الشافعي — فانها مقترحات جليلة القدر وفيها كثير من عنـــاصر التبسيط . تجد نص هذه المقترحات في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٣٢ ، سنة ١٩٥٧ ، وفي كتاب النحو الجديد لعبد المتعال الصعيدي ص ٨٥ — ١٠٩ .

الناس – اعني اولئك الذين يعنون بمثل هذه القضايا الفكرية التربوية – حيال هذه الحركة اللغوية ثلاث فئات : فئة محافظة تنظر الى كل محاولة ترمي الى ادخال تعديل ، مهما يكن نوع التعديل ، على قواعد اللغة التي وصلتنا من القدامى بكثير من الريبة والحذر . وفئة ثانية عانت مشاكل تدريس اللغة فراحت تبارك الحركة وتدعو لها بالخير . وفئة ثالثة – وجلهم من الطلاب الجامعيين – تقف بين هؤلاء واولاء وقفة المتحير ، فلا هم يعرفون صلب المشكلة ، ولا هم يدركون مبلغ الأثر الذي تتركه المشكلة في المجتمع اللغوي . فان عبارات كثيرة ترد في كتابات اصحاب المدرسة الجديدة تحتاج الى ايضاح مثل « فلسفة النحو » « اثر منطق ارسطو في النحو العربي » « اثر الفقه او علم الكلام في القياس النحوي » « تجريد النحو من الفلسفة » . وقد طلب الي تلاميذي ان اوضح معنى هذه العبارات . وهذا المقال مهدى اليهم ، واليهم كتب . وسنحاول ان نبحث :

(ا) الجوّ الذي وضعت فيه احكام اللغة .

(ب) الاخطاء المنهجية التي وقعوا فيها .

(ج) امثلة على اثر الفلسفة والمنطق في الصرف والنحو العربيين .

وسنحرص عند بحثنا هذه الامور الثلاثة ان نبين موقف اصحاب المدرسة الوصفية .

(١) الجو الذي وضعت فيه احكام اللغة :

لن نرهقك بذكر الروايات المختلفة التي يوردونها عن الحوافز التي دفعت القدامى لوضع النحو . فان اكثرها ، ان لم تقل جميعها ، يحتاج الى اثبات تاريخي ، ونحن نفتقر الى مثل هذا الاثبات . يقال لنا مثلا ان اللحن تفشى زمن النبي وفي عصر الخلفاء الراشدين ، وان ملكة اللغة فسدت لاختلاط العرب الخلص بالاعاجم ، ولاستيطانهم بلداناً لم تكن مواطن للغة العربية . ويقولون لنا ان علياً بدأ بمهمة وضع قواعد اللغة ثم اوعز الى ابي الاسود الدؤلي (+ ٦٧) ان ينحو نحوه . ويقال ان ابا الاسود عمل مستقلاً وذلك عندما قالت له ابنته : « ما اشد الحر » وعلى رواية اخرى « ما احسن السماء ». ويقال ان ابا الاسود طلب الى زياد ان يضع القواعد فأبى عليه ذلك الى ان سمع اناساً اتوه يقولون : « توفي ابانا وترك بنون » او عندما سمع اعرابياً يقرأ : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » او ان عمر بن الخطاب سمع هذه القراءة فاوعز الى أبي الاسود ان يضع قوانين اللغة . وهنالك رواية تقول ان واضع القواعد هو نصر بن عاصم الليثي (+ ٨٩) او عبد الرحمن بن هرمز (+ ١١٧) . هذه وغيرها تحتاج الى اثبات . ولكننا اذا اخذنا نواة هذه الروايات واضفنا اليها القرائن والادلة العقلية لتبين لنا :

أولا : ان الحافز الاول كان ضبط القرآن الكريم الذي دون

بشكل من الخط الخالي من الحركات والتنقيط مما يسبب اضطراباً في قراءته كما ينبغي ان يقرأ . ويخيل الي ان ابا الاسود كان همه الأول ادخال نظام من النقط (كما في السريانية وكما سيتراءى لك بعد قليل) يعين القارىء على ضبط النطق بآيات القرآن الكريم . هذا هو الحافز الديني . وفكرة التنقيط سريانية لا شك في ذلك . وقد اخذ العرب عنهم هذه الفكرة عنـــد ضبط القراءة .

ثانياً : وكان الحافز الثاني ما قام به الرواة عند جمعهم الحديث الشريف واشعار القدماء وامثالهم . هؤلاء مهّدوا الطريق للنحاة في انهم جمعوا لهم مادة للاستشهاد والاستقراء (١) امثال ابو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي . هذه المادة اللغوية تحتاج الى درس وتفهم .

ثالثاً : يتبين لنا ان المركز الأول الذي نشأت فيه هذه الحركة اللغوية كان مدينة البصرة . في البصرة كانت تلتقي الحضـــارة الاغريقية الوثنية والايرانية والارامية المسيحية والدين الاسلامي الجديد . وفي البصرة جماعة كبيرة من الاعاجم الذين يرغبون في تعلم لغة القرآن الكريم ، والغريب عن اللغة يجب ان يتعلمها

---

(١) طبيعي الا يكون الجمع تاماً والا يكون الاستشهاد مستوفياً جميع الشروط التي يتطلبها العلم . ومن هنا كان الاضطراب في الاستقراء .

حسب اسلوب وحسب مصطلح معين ، ولذا كان الاعاجم من اشهر لغويي العرب . وفي البصرة نشأ القياس الفقهي والجدل العقائدي ، وفي البصرة بدأت حركة الاعتزال . ولا ننس قرب البصرة من جنديسابور .

يقول السيوطي : « ... واصول اللغة محمولة على اصول الشريعة » ويقول الكسائي : «انما النحو قياس يتبع» وابن جني يقول : « اذا بطل ان يكون النحو رواية ونقلا وجب ان يكون قياساً وعقلا » والقياس نشأ في البصرة حيث نشأ القياس الفقهي . ويقول ابن الانباري : « ان انكار القياس في النحو لا يتحقق ، لأن النحو قياس كله ، فمن انكر القياس فقد انكر النحو» : « اذن لنا ان نستنتج ان مسائل النحو والاختلاف فيها بدأت في الجو الجدلي الفقهي في البصرة » .

رابعاً : ويتبين لنا اخيراً ان النحو مر في اطوار سابقة لظهور « الكتاب » لسيبويه (+ ١٦١ او حسب رواية اخرى + ١٧٧) . فان كتاب سيبويه في قواعد العربية تام الصناعة في الشمول والتعليل والمصطلح ، مما يدل على أنه ، كعلم ، يجب ان يكون قد مر في اطوار سابقة .

في هذا الجو المشحون بالعقائد الفلسفية والدينية ، وفي هذا الجو الذي يتميز بالرغبة الصادقة والعزم الثابت على جمع اللغة وضبطها حفاظاً على الشريعة نشأ النحو العربي . بكلام آخر

كان من الطبيعي جداً ان تكون نشأة العلوم اللغوية العربية في القرن السابع ميلادي مصطبغة بالصبغة الدينية الحميمة ، ذلك لان القرن السابع ميلادي كان قرناً حاسماً في الشرق الادنى تميز بنوع من التصادم الديني الذي ادى الى نشاط فكري تناول اللغة كما تناول العقائد الدينية والجدل الفلسفي .

القرن السابع ميلادي

يقال لنا ـ والقول صحيح ـ ان النحو العربي ، او بالاحرى الدراسات اللغوية ، تأثرت بالمنطق الاغريقي وبالفلسفة الميتافيزيقية كما تظهر في مقولات ارسطو . نقول : هذا صحيح الى حد ما ، اذ أن الامر يحتاج الى تعديل وتحديد . إن الأثر الأول كان للسريان النصارى واليهود . ولا شك بأن السريان وضعوا صرفهم ونحوهم في أزمنة تسبق زمن ظهور الاسلام . وقد احتذوا حذو الاغريق في وضع القواعد بشهادة لغرييهم . فكان أن تأثر العرب اولا بالصرف والنحو السرياني ، والامر لا يحتاج الى تدليل ، لأن وضع قواعد اللغة العربية، وفلسفة العامل فيها اسبق في الزمن من عصر الترجمة والاحتكاك الوثيق بالفلسفة الاغريقية وبالعلوم الاغريقية . بدأت العلوم اللسانية في القرن السابع ميلادي بدافع ديني : ضبط قراءة القرآن الكريم وحفظه. وكان النموذج امامهم ما صنعه السريان قبلهم ، وما فعله اليهود الذين بدورهم تأثروا بالسريان .

في القرن السابع ميلادي :

(ا) بلغت علوم اللغة السريانية الذروة من حيث الشمول والكمال وذلك عندما وضع يعقوب الرهاوي (٦٣٣ — ٧٠٨) صرفاً ونحواً للسريانية ظل مرجعاً لكل من جاء بعده . ويعقوب هذا تتلمذ على سيبوخت اسقف قنسرين الذي ترجم مقولات ارسطو وكان عالماً في الصرف والنحو السريانيين . ونذكر ايضاً حنين ابن اسحق (+ ٨٧٦) الذي كان صديقاً حميماً للخليل ابن احمد ولازمه حتى اتقن اللسان العربي .

(ب) ضبط اليهود في مدرسة طبرية نص اسفار العهد القديم وذلك بوضع نظام من الرموز التي تشير الى الحروف المصوّتة . لأن القارىء الكريم يعرف أن جميع الخطوط السامية كانت تكتفي بذكر الحروف الصامتة في الكلمة وترك تقدير الحركات للقارىء . كان لليهود نظامان : البابلي والطبري (نسبة الى طبرية والشائـــع الآن) وفي جميع المخطوطات واقدمها كالتي في Codex Babylonicus المؤرخ بسنـــة ٩١٦ ميلاديـــة و Codex Sinaiticus هو النظام الطبري . والنص هـــذا يعرف بالمشورة أي النص التقليدي المعترف به (وهي كلمة عبرية من جذر أسر أي قيّد وضبط) .

(ج) وفي القرن السابع يجد المسلمون أن القرآن الكريم مكتوب بخط يحتاج الى ضبط . والروايات متعددة بأن اللحن

تفشى في زمن مبكر ، وانه كان يخشى أن يتسرب اللحن الى قراءة القرآن الكريم . والرواية عن أبي اسود الدؤلي تشير الى انه عني اولا بقضية تنقيط القرآن الكريم تسهيلا للقارىء . والتنقيط سرياني وقديم العهد . فان الكتابة السريانية ايضاً خلو من الحروف المصوتة وخلو من التنقيط . والتنقيط ضرورة للتفريق بين حرف وآخر متشابهين في الشكل كما في حرف الدال والراء في السريانية . فان مار افرام الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع ميلادي كان يضع نقطة فوق هذا الحرف المشتبه دلالة على أنه راء ، ونقطة تحته دلالة على انه دال .

في هذا الجو ، جو القرن السابع ميلادي ، بدأ العرب يدرسون لغتهم درساً منظماً ، وكان من الطبيعي أن يتأثروا بالمنهج اللغوي الذي كان يأخذ به السريان الذين احتكوا بهم احتكاكاً لصيقاً .

(ب) الاخطاء التي وقع فيها النحويون :

عندما نقول « أخطاء » نعني اخطاء بالنسبة الى المنهج الجديد في دراسة اللغة الذي يعنى بالوصف اكثر مما يعنى بالعلل والاسباب ونحن عند ذكرنا هذه الاخطاء لا ننتقص من الجهود التي بذلها القدامى ، ولا ننكر عليهم العمق والحس اللغوي المرهق الذي

يظهر في كتب اللغة . قلتها واقولها تكراراً اننا نحن الذين نعرف شيئاً عن هذه الجهود نكبر العلم الذي ابداه القدماء في هــذا الحقل . وكذلك اكرر القول أن هذه الاخطاء كانت اخطاء عامة وقع فيها العالم القديم الذي اقحم الفلسفة والمنطق والدين في العلوم اللغوية .

وسنمثل على هذه الاخطاء في الجزء الثالث من دراستنا (ج) حيث سنأخذ باسهاب بعض النواحي التي تأثرت بمنطق ارسطو عن طريق غير مباشر . لذلك نكتفي الآن بذكر أخطر هذه الأخطاء في نظرنا .

١ ـ اعتبار اللغة جزءاً من العلوم الدينية . شعوب كثيرة اعتبرت لغتها مقدسة، ولا ضير في ذلك . غير أن الخطر يكمن في تجميد اللغة وحصرها ضمن اطار محكم من الاحكام الشديدة واللغة ، كما نعلم جميعاً ، لا تقف ، بل ان لها مجرى تسير فيه . واما اكثر الفقه وعلم الكلام واحكامها في النحو العربي فامر لا يحتاج الى برهان (١) .

٢ ـ اعتبار اللغة منطقية مطردة. هكذا اعتبر الاغريق لغتهم، ولكن اللغة وليدة النفس والعاطفة كما هي وليدة الفكر . عندما نغنّي ونلعن ونشتم ونتعجب وندهش ونتأوّه حسرة فاننا لا

---

(١) راجع ابن جني : الخصائص « باب ذكر علل العربية ، أكلامية هي أم فقهية ، » ص ٤٦ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٣) .

نتفوه عادة باحكام منطقية كما اراد ارسطو ان تكون الجملة حكماً منطقياً . وقد تعب اللغويون كثيراً في رد هذا النوع من الجمل الى احكام عامة منطقية وضعت مقدّماً .

٣ ـ قضية الاحتجاج . اما علماء اللغة الذين عنوا بجمع الشواهد والامثلة من افـواه العرب فكـانوا عـلى حق . واسلوبهم اسلوب علمي ، اذ انه عندما نريد ان ندرس لغة او لهجة علينا اولا ان نحدد الزمن والمكان (أي المجتمع اللغوي). وهؤلاء عنوا بجمع الفصيح من افواه العرب . غير ان علماء الصرف والنحو لم يعتمدوا اسلوباً معيناً . فانهم مثلا (أوالمترمتين منهم) اسقطوا الاحتجاج بالاسلاميين المولدين في اللفظ والمعنى واحتجوا بكلام الجاهليين وشعرهم . وبعضهم احتج بكلام المولدين على المعاني . وكان من الطبيعي أن يظهر في عصور اسلامية لاحقة نحويون متحرزون كابن جني الذي احتج بشعر المتنبي وفصاحته وبلاغته في اللفظ والمعنى . هذه الفوضى في الاحتجاج جعلت جماعة تحتج بكلام قبيلة اسد وتميم وأخرى تحتج بكلام قريشيين ، وأخرى بكلام قبيلة عربية اذا كان احتجاجه بكلامها يدعم نظرية خالف بها نحوياً آخر . ولكن لم يختلفوا اطلاقاً بالاحتجاج بالقرآن الكريم وبالحديث اذا ثبت عندهم . ولكـن تظهر الفوضى في احتجاجهم بلغـة القبائل . قال رجل لابي عمرو ابن العلاء : « اخبرني عمـا وضعت مما سميت عربية ، ايدخل فيه كلام العرب كلـه ؟

فقال : لا . فقال : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : احمل على الأكثر واسمي ما خالفني لغات . »(١)

هذا الاحتجاج نشأ عنه كثير من الخلاف في تفسير كثير من الظواهر اللغوية وادّى الى تباين في التخريج الاعرابي ، فهذا يعمل بناء على استشهاد ، وذاك لا يعمل بناء على استشهاد مضاد .

٤ ـ قضية السماع والقياس . والسماع مبدأ لغوي يعتمد النقل ، او سماع ما ورد في نص ثابت معترف بفصاحته وبلاغته ، او ما سمع عن عربي فصيح شعراً كان أم نثراً . المبدأ صحيح . والقياس مبدأ لغوي يعتمد على العقل بناء على ما له نظير في اللغة شرط ان يكون المستشهد به قد ورد على لسان عربي . والمبدأ صحيح . وكلا المبدأين يعملان على نمو اللغة والابقاء عليها . ومدرستا الكوفة والبصرة كانتا تأخذان بالمبدأين ، ولا صحة للقول ان هذه كانت تأخذ بالسماع وتلك بالقياس وحسب ، اذ ان الحقيقة خلاف ذلك . انما كان الخلاف بين المدرستين خلافاً في القدر والكمية . لا شك في ان البصرة كانت محافظة والكوفة ثائرة . وقد يكون هنالك اسباب اجتماعية

(١) ضحى الاسلام ، الجزء الثاني ص ٢٥٩ .

وسياسية (حتى وجغرافية) جعلت من البصرة مدرسة محافظة ومن الكوفة مدرسة متحررة ثائرة . يهمنا من الأمر أن نقول ان الخلاف بين اهل السماع واهل القياس افسد على كليهما انتهاج منهج موضوعي في دراستهم اللغوية وذلك للاسراف والتكلف اللذين يبدوان في حجج كل من المدرستين لدعم وجهتي نظرهما . ويظهر هذا جلياً في كتاب ابن الانباري « مسائل الخلاف » .

٥ — قضية الرواية . وخبر الرواة وصدق رواياتهم او كذبها امر معروف . يقول خلف الاحمر : « اتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به . فكنت اعطيهم المنحول وآخذ الصحيح . ثم مرضت ، فقلت لهم : ويلكم ، انا تائب الى الله تعالى . هذا الشعر لي . فلم يقبلوا مني وبقي منسوباً الى العرب لهذا السبب » . ولسنا بحاجة الى ايراد امثلة على فوضى الرواية ، انما يهمنا ان نذكر هنا ان فوضى الرواية ادت في كثير من الاحيان الى ترسيخ الخلافات في التخريج والتعليل مما ارهق النحويين وراهق المتعلمين معهم .

٦ — قضية تنافس اللغويين على الحظوة عند الحكام . كانت الكوفة شيعية اكثر إخلاصاً للعباسيين من اهل البصرة ، فقربهم الخلفاء ورفعوا من شأن علمائهم . ولا نشك في أن اهل الكوفة حاولوا أن يحتفظوا بهذه الحظوة عند السلطان وما تجرّه من مغنم

مادي . فكانوا اذ أنسوا من الخليفة تقرباً من بصري حاولوا الانتقاص من علمه وذلك بالطعن في معرفته النحو . ولكن الا نغالي في امر الخلاف السياسي او الديني بين مختلف المدارس اللغوية الاولى . ولكن ما لا ريب فيه هو ان هذه الحظوة عند الحكام وهذه المنافع المادية التي كان يجنيها بعضهم من تقربهم الى السلطان كانت في اساس الخلاف اللغوي . والحق انها لظاهرة غريبة اكرام النحويين ومنزلتهم الرفيعة عند الخلفاء وهو امر يفتخر به . ولكن ما لا شك فيه هو أن هذا المقام ، وهذه الحظوة وهذا النفع المادي جعلت النحوي يشعر انه كلما اسرف في التخريج ، وكلما اسرف في ذكر الغريب والنادر والشاذ نال حظوة واكراماً ومقاماً عند الخليفة . وقد قيل لنا ان الكسائي المدلل كان يرفع وينصب ويجر في الشاهد الواحد ولا يعدم وسيلة لتعليل هذه الظواهر اللغوية المتباينة . هذا إسراف في اللغة. هذا اجتهاد شخصي ولون من الوان الاعتداد بالنفس .

(ج) اثر الفلسفة والمنطق في الصرف والنحو العربيين :

اثر التفكير الاغريقي ظاهر في مناهج الدراسات اللغوية في اوروبا وفي اللغات السامية . فان الاغريق اعتبروا لغتهم احسن اللغات قياساً واطراداً واعراباً . وكذلك اعتبروا الاغريقية لغة منطقية قواعدها تنطبق على جميع اللغات المتمدنة . وعندما كتب السريان صرفهم ونحوهم اتبعوا الاسلوب الاغريقي وذلك في زمن مبكر جداً . وتأثر العرب ، عندما وضعوا احكام لغتهم

بجيرانهم السريان (١) وفي اوروبا نجد ان صرف اللغـــات الاوروبية يتبع الاسلوب الاغريقي مصطلحاً وتبويباً وتعريفاً. فان المعلمة الانكليزية او الاميركية عندما تعلّم الاولاد تحليل الجملة واعرابها – حسب الاسلوب القديم(٢) – تستعمل المنطق الاغريقي او المصطلح الاغريقي وتلميذها لا يفقه شيئاً من ذلك. مثاله اعراب جملة :

The boy ate an apple (اكل الولد تفاحة).

نقول لهم boy المبتدأ (subject) وهو في حالة الرفـــع (Nominative Case) و apple المفعول به لفعل ate وهو في حالة النصب (Objective or Accusative Case) ولكن هذا الولد الذي لغته غير معربة لا يفقه معنى لكلمة « مرفوع » و « منصوب » لانه لا يرى علامات لهذه الحالات الاعرابية ان لفظة boy لا تتغير سواء اتت مبتدأ مفعولا به ام بعد حرف جر، انها تلزم حالة واحدة : boy ، فما معنى قول المعلمة انها في حالة الرفع؟

(١) سنبحث هذه القضية في مقال عنوانه : « اثر السريان في وضع قواعد اللغة العربية » . وسنبين ان الأثر الأغريقي جاءهم عن طريق السريان مباشرة لا عن طريق كتب الاغريق اللغوية ، لأن نشأة الصرف والنحو العربيين كانت اسبق في الزمن من زمن الترجمة والاحتكاك اللصيق بالاغريق .

(٢) لقد طرأ تغيير كبير على تعليم اللغة وتعلمها في اوروبا . ولا شك ان المدرسة الوصفية هي التي ستسود في المدارس . ولكن هنالك اوساطاً لا تزال تعلم اللغة على الاسلوب الاغريقي .

المعلمة لا تزال تعلم الانكليزية كما كان الاغريق يعلمون اطفالهم اللغة الاغريقية وبالمصطلح والمنطق ذاتهما . اما الالماني الذي يعرف الاعراب فقد لا يستغرب ذلك ، لأن اداة التعريف للمذكر المفرد في لغته (مثلا) تكون : der في حالة الرفع ، و den في حالة النصب ، des في حالة الاضافة و dem في حالة من احوال الجر . ولذا نجد في الغرب نقمة عند الاختصاصيين في تعليم اللغــات حسب المنطق الاغريقي ، وحسب المصطلح الاغريقي اولا لأن لكل لغة قواعدها ، وثانياً لأن اللغة ليست منطقية قياسية كما كان الاغريق يدعون .

لا شك ان اثر المنطق الاغريقي (مقولات ارسطو على وجه التخصيص) ظاهر في صرفنا ونحونا . بدأ هذا ، كما قلنا ، في البصرة حيث نشأ القياس الفقهي (١) . وفي البصرة شيعة ومعتزلة يأخذون بالاجتهاد والتأويل . وكانوا يقولون عن أهل

---

(١) اركان القياس اربعة : (ا) اصل وهو المقيس عليه . (ب) فرع وهو المقيس (ولا يجوز التسوية بين الأصل والفرع ، لأن الفرع ينحط عن الأصل) (ج) حكم ، ويتنوع فيكون واجباً او ممنوعاً او حسناً او قبيحاً . (د) علة وهي المبرر للقياس . ويشبه القياس النحوي القياس الفقهي : (ا) ما جاء على اصله لا يسأل عن علته . (ب) يحمل الأقل الأندر على الأعم الأكثر ولا يعكس. (ج) الحمل على ما له نظير اولى من الحمل على ما ليس له نظير . (د) القياس على الفاسد فاسد . (ه) ما ورد في ضرورة شعرية يجوز حمله على ذات الضرورة وليس قاعدة .

البصرة انهم اصحاب قياس ومنطق . واصحاب البصرة كانوا يعتبرون اللغة قياسية منطقية وما يخرج عن المجرى المحدد للغة شاذ لا يقاس عليه ، بعكس أهل الكوفة الذين كانوا اقرب الى النظرة الحديثة التي تستقرى الحقائق اللغوية قبل ان ترتبط بقاعدة عامة (كما فعل أهل البصرة) . فكانوا يقيسون على الشاذ . ولا نريد ان نقول أن أهل الكوفة لم يأخذوا بالقياس او انهم لم يتأثروا بمنطق البصرة ، كلا ، انما نريد ان نقول انهم كانوا اكثر تحرياً في الاستشهاد وتحررا في القياس .

وللقارىء الكريم ان يسألنا عن امثلة من الصرف والنحو العربيين يظهر فيها أثر مقولات ارسطو العشر ، وهي الجوهر (Substance) والكم (Quantity) والنوع او الكيف (Quality) والعلاقة او الاضافة (Relation) الأين او المكان (where or place) المتى او الزمان (when or time) الوضع (position) الملك (possession) الفعل (action) والانفعال (passion) (١) . يبدو اثر المنطق الاغريقي وفلسفة العلية الارسطوطاليسية التي تعني بالسبب

---

(١) ان مقولات ارسطو (Categories) ترجمت الى السريانية قبل ظهور الدعوة الاسلامية ، وهي من جملة الأمور التي ترجمت الى العربية اولا . ولكننا نعتقد ان اثرها في الصرف والنحو العربيين كان اثراً غير مباشر ، اذ ان العرب اتبعوا الاسلوب السرياني في وضع القواعد ، والسريان تأثروا كثيراً بالاغريق، لا بل اتبعوهم حرفياً في امور كثيرة .

والحكمة معاً في ابواب عديدة من ابواب الصرف والنحو . وقد يكون هنالك كتب مدرسية حديثة لا يظهر فيها اثر المنطق والفلسفة بشكل يسترعي الانتباه ، ولكن هنالك كتباً عديدة ويسميها اصحابها كتباً ميسرة او مبسطة او علمية — لا تزال تتبع اسلوب القدماء كما هو في المطولات القديمة حيث يجد المرء فلسفة لغوية تشبه القياس الفقهي وعلل المتكلمين . وقد اخترنا ثمانية امثلة من صرفنا ونحونا يظهر فيها اثر المنطق والفلسفة . وقد استثنينا ايضاً ان نذكر موقف المدرسة الوصفية الحديثة من هـذه الامثلة ليتسنى للقارىء الكريم فهم المشكلة التي نحن بصددها : تجريد النحو من اثر المنطق والفلسفة .

هذه الامثلة اللغوية الثمانية التي اخترناها هي :

(١) المعرب والمبني

(٢) تقسيم العربية من حيث دلالتها

(٣) جوهر الكلمة (المقولة الاولى : الجوهر)

(٤) الجملة حكم منطقي

(٥) العامل (العلة)

(٦) الاعراب وعلاماته

(٧) الاعراب التقديري والمحلي

(٨) التنوين

(ا) المعرب والمبني :

يقول صاحب الالفية في المعرب والمبني :

والاسم منه معـــرب ومبـــني   لشبه من الحروف مـــــدني
كالشبه الوضعي في اسمي جئتنا   والمعنوي في متى وفي وهنا
وكنيابة عن الفعـــل بـــــلا   تأثر وكافتقـــار اصـــلا
ومعرب الاسماء ما قـــد سلما   من شبه الحرف كارض وسما
وفعـــل امر ومضي بنيـــــا   واعربوا مضارعاً ان عريا
من نون توكيـــد مباشر ومن   نون اناث كيرعن من فتن

اما الاعراب فظاهرة لغوية مرّت بها لغات كثيرة . بعضها اسقط الاعراب واستعاض عنه نماذج من التّركيب لا تحتاج الى الاعراب لظهور المعنى وبعضها احتفظ به كاملا او احتفظ ببعضه . واصل الاعراب غامض لانه يعود في نشأته الى عصور سابقة للتاريخ . ولكن الانسان شغوف بمعرفة اصول الاشياء وكيف حصلت ومن جملتها نشأة الاعراب ، فقدمت اقتراحات كثيرة ونظريات متعددة وجميعها تفتقر الى اثبات (١) .

والعربية لغة معربة غير ان علامات الاعراب لا تظهر على اواخر بعض الكلمات بل تبقى كما هي في مختلف التّراكيب .

---

(١) منها انه زخرف كلامي ، ومنها انه جزء من موسيقى اللغة ، ومنها انه كلام جماعة متميزة اجتماعياً وادبياً والقصد منه التأثير والتهويل ، ومنها انه بدأ كنوع من وصل الكلام لان الكلام مجرى صوتي مستمر ، ومنها انه حصل بنشوء الشعر والنثر الفني الذي يحتاج الى تقديم وتأخير واصول الغناء ... الخ .

وهذه الكلمات مبنية . هذه القضية ، قضية الاعراب البناء ، أثارت مشاكل عديدة حاول اللغويون حلها بكل اخلاص ودقة وعمق . فتساءلوا عن الوضع الاول للكلمة العربية قبـــــل التركيب ، هل هي معربة ام مبنية ؟ هل الكلمة هي « ولدٌ » ام « ولدٌ » . قال قوم هي معربة وقال آخرون هي مبنية وعند التركيب تصبح معربة بفعل عامل . وقال آخرون ليست مبنية ولا معربة لان الاعراب والبناء حكمان من احكام التركيب فلا يجوز ، قبل التركيب ، ان نتكلم عن معرب وعن مبنى .

وتساءلوا لماذا بعض الكلمات معرب وبعضها مبني . قالوا ان الكلمات تتفاوت قوة ومرتبة . فالاسماء ، التي هي الذوات اقواها وارفعها مرتبة ، والافعال ، التي هي احداث تصدر عن الذوات ، تأتي في مرتبة ثانية من القوة والرفعة . والادوات (الحروف) ليست بكلمات لانها لا تدل على ذوات اواحداث ، اذن لا موجب لاعرابها فتكون مبنية وهي ادنى مراتب الكلمات في الرتبة . بكلام آخر رتبوا الكلمات حسب ترتيب اليونان لها :

(ا) اسم ، وهو ايضاً درجات في الرفعة والمقام

(ب) فعل

(ج) حرف (او اداة)

(١) متمكن امكن

(٢) متمكن غير امكن

(٣) غير متمكن

ثم تساءلوا : ان بعض اقسام الاسم الذي يحتل المرتبة الأولى مبنية ، لماذا ؟ هنالك ستة انواع من الاسماء مبنية : الضمائر ، واسماء الاشارة ، والاستفهام ، والشرط ، والموصول ، واسماء الافعال . هل بناؤها لسبب واحد .

فالمتمكن الامكن هو الذي ينون اذا خلا من أل والاضافة والمتمكن غير الامكن هو الذي لا ينون ويرفع بالضمة وينصب ويجر بفتحـــة (الممنوع من الصرف) الا اذا اقترن بأل او اضيف . وغير المتمكن وهو المبني .

او لاسباب متعددة ؟ يقول صاحب الألفية ان الاسماء المبنية (الضمير والموصول والاشارة ... الخ .) مبنية لانها تشبه الحرف في اربعة امور :

(أ) في الوضع ، أي ان هذه الاسماء تشبه الحرف في عدد حروفها ، والحرف يكون اما من حرف واحد او من حرفين . هذا هو الاصل وما زاد من ذلك فهو ليس باصل . والضمير هو يشبه الحرف لانه يتألف من حرفين وكذلك « نا » في جئتنا التي ذكر صاحب الألفية . ولكن

نلاحظ ان هنالك اسماء لا تشبه الحرف في الوضع : مهما ، هنالك .

(ب) في المعنى ، أي ان هذه الاسماء المبنية (الشرط والاشارة والضمير ... الخ) تشبه حرفاً موجوداً وحرفاً غير موجود . فان الاشارة دلالة ومعنى ولكن ليس لها حرف خاص « (كذا !) فبنيت (هنا) لانها تشبه في المعنى حرفاً كان يجب ان يكون (كذا !)

(ج) في النيابة عن الفعل مثل هيهات دراك فان معنى الأولى بعد فعل ماض والثانية أدرك (فعل امر) .

(د) في الافتقار اللازم مثل الذي . انها بنيت لافتقارها لما يتمم معناها .

(ه) واضاف الشراح وغيرهم شبهاً آخر بالحرف سموه الشبه الاهمالي ، ويتناول الحروف التي تبدأ بها سور القرآن الكريم . واختلفوا في تأويلها وفي اعرابها .

نريدك ان تلحظ اعتبارهم اللغة موضوعة على اسس من المنطق ، كان اللغة وضعها اناس حول طاولة مستديرة . ولا يقتصر الامر على هذا وحسب وانما للكلمات ذاتها مرتبة وشأن وحظة . فان لفظة «هنا» مبنية لانها تشبه حرفاً غير موجود . يعللون ذلك بقولهم ان الاشارة دلالة معنوية ينبغي اذن ان يكون

للاشارة اداة ولكن بما انه ليس للاشارة حرف خاص بنيت « هنا » لانها تشبه حرفاً غير موجود ! لا اظن ان القارىء يقبل بمنطق كهذا . للاشارة اداة وهي « هنا » وان نقول ان « هنا » مبنية لانها تشبه حرفاً غير موجود غاية في التعسف والتكلف .

في حالة كهذه ماذا يقول الوصفيون Descriptivists ؟ المسألة ايسر بكثير مما توهم القدامى . يقول الوصفيون :

اللغة العربية معربة ، غير ان اواخر بعض الكلمات لا يتغير بالعامل ثم انه يشرح ، في تقسيم المفردات الى ثلاثة اقسام رئيسية (ا) : المعرب اعراباً تاماً (ب) والمعرب اعراباً جزئياً (ج) المبني وبدون تعليل وبلا افتراض بل بناء على واقع اللغة (١) . هكذا :

(ا) المعرب اعراباً تاماً :

(١) الاسماء

(٢) الصفات

(٣) الفعل المضارع (باستثناء تصريفه مع هن وانتن ، واذا خلا من نون التوكيد)

---

(١) قد يكون هنالك اكثر من ثلاثة اقسام ، فان الاسماء الخمسة يمكن اعتبارها فئة قائمة بذاتها .

(ب) المعرب اعراباً جزئياً (الممنوع من الصرف)

وهو الذي لا يلحقه التنوين ، وينصب ويجر بفتحة الا اذا عرّف او اضيف :

(١) كلمات على وزن مفاعل ومفاعيل

(٢) صفات على وزن فعلان والّتي مؤنثها فعلى

(٣) صفات على وزن افعل

(٤) اسماء اشخاص مثل يزيد ابراهيم مريم سعاد طلحة عبلة عثمان عمران

(٥) اسماء جغرافية مثل دمشق بعلبك بيت لحم

(٦) كلمات مثل علماء صحراء شعراء .. الخ (١)

(ح) المبني :

(١) الفعل الماضي

(٢) الامر

---

(١) يصعب علينا ان نقر النحويين على فلسفتهم اللغوية فيما يتعلق بالممنوع من الصرف ، فان جميع العلل الّتي يقولون انّها تسبب المنع من الصرف واهية لا يقرها علم اللغة . مساجد ليست ثقيلة ، وصياقلة يحسبونها منصرفة بينما صياقل غير منصرفة ، لماذا ، كنا نتمنى لو ان هذه الكلمات الحقت بالمنصرف فــان الحاقها لا يغير شيئاً من معناها ولا يخل بموسيقاها ولا تتأثر قواعد اللغة لا من قريب ولا من بعيد . الا يسمح للشاعر بان يصرف ما لا ينصرف ؟

(٣) المضارع مع ضمير هنّ وانتن واللاحقة به نون التوكيد

(٤) ابواب من ابواب الاسم : الضمير والشرط والاستفهام والموصول والاشارة واسماء الافعال .

(٥) حروف الجرّ

(٦) الكلمات التي تنتهي بألف مقصورة مثل الفتى والرحى وحبلى والسكرى والمرضى .

(٧) الكلمات المضافة الى ياء المتكلم مثل كتابي

(٢) تقسيم الكلمة العربية من حيث دلالتها :

قسم نحويو العرب الكلمة من حيث المعنى الى ثلاثة اقسام اسم ، ويدل على ذات او شيء غير مقترن بزمن ، وفعل ويدل على حركة او حدث او فعل مقترن بزمن ، وحرف (والكوفة سمته اداة) وهو للدلالة على علاقة . ان هذا التقسيم اغريقي . كان الفلاسفة اليونانيون يعنون بتفسير الوجود . قالوا أنه يتألف من ذوات او اشياء (وهي الاسم) وحركات او افعال (وهي الفعل)وعلاقة (وهي الاداة). هذا تفكير فلسفي . وقد رأى الاغريق ان هنالك شبهاً بين اللغة وبين تفسير الوجود . ولكن المدرسة الوصفية لا تعني بالفلسفة بقدر ما تعنى بدراسة المعاني التي تؤديها الالفاظ المختلفة والوظائف التي تقوم بها في التركيب المفيد وعليه

اذا اعتبرنا المعاني التي تؤديها الالفاظ المختلفة التي تتركب منها اللغة لوجدنا ان هنالك انواعاً اكثر مما وجد الاغريق (اسم وفعل واداة) . في اللغة اسماء وافعال وكلمات نصف بها او نقيد بها الاسماء والافعال ، وضمائر تنوب عن الاسماء ، وادوات للربط ولاظهار العلاقة . الأول تفكير مشوب بالفلسفة ، والثاني موضوعي .

(٣) جوهر الكلمة (مقولة الجوهر عند ارسطو)

يظهر اثر الفلسفة – فلسفة الجوهر – في اعتبار الجذر الثلاثي اصلا او جوهراً للكلمة (باستثناء الاداة) وقد اختار احد اللغويين وزن فعل (او فعل ، فعل) ميزاناً . وعلى هذا الاساس اعتبروا ان اصل قام قوم واحدثوا قواعد للاعلال تفسيراً لتغير قوم الى قام . وكذلك اعتبروا ان اصل مدّ مدد لتستقيم وزناً مع فعل ، ولم يعلموا وسيلة لرد مدد الى مدّ . وتعليلنا ان التنوين في « جوار » هو تعويض عن حرف ساقط انما هو محاولة لردها الى الجوهر . الجوهر هو فواعل ، اذن يجب ان يكون اصل « جوار » جواري ومحام محامي لتستقيم وزناً مع مُفَاعِل مفاعل الجوهر . اما المدرسة الوضفية فتقول لنا : من اخبرنا ان قام اصلها قوم ومدّ مدد ؟ هل هنالك اثبات ؟ وما الصعوبة في لفظ قوم ومدد ، أليستا كلمتين على وزن فعل ، فلماذا غير القوم ذوقهم اللفظي فقالوا « قام » و« مدّ » اشهى لفظاً واسهل

نطقاً هنالك تناقض فاضح في التعليل . المدرسة الوصفية تقول ان الفعل الثلاثي في العربية يأتي على اوزان مختلفة شكلا :

كتب قام باع مدّ دعا رمى ... الخ

لا على وزن واحد . بهذا ننجو من التعسف والتكلف في ردّ الاشكال المختلفة الى الوزن الذي وضعناه مسبقاً .

(٤) الجملة حكم منطقي :

اعتبر الاغريق الجملة المفيدة حكماً منطقياً يتألف من موضوع نتكلم عنه subject ومحمول (predicate) وهو ما نقوله عن الموضوع . لا اعتراض على هذا من حيث المبدأ . ولكن اللغة ليست وليدة المنطق والعقل . اللغة عاطفية ذاتية . نشأت اللغة مع الغناء والرقص المقدس . وما يظهر في اللغة من عدم المنطق مرده الى العاطفة الانسانية . فاننا عندما نحب ونعبر عن حبنا ، وعندما نغضب ونثور فنشتم ونسب ، وعندما نتعجب ونتفجع ونستغيث ، اقول ، في مثل هذه الحالات لا تكون الجمل التي نتفوه بها حكماً منطقياً ضرورة . ومن الامور التي ارهقت علم النحو وطلابه ان القدامى حاولوا ان يرجعوا كل جملة الى انها حكم منطقي . ولنمثل لك بالجمل الآتية :

الولد قام　　　قام الولد　　　الجو جميل

ان الجوّ جميل(اوكان الطقس جميلا)　　　ما ألطف الجوّ!

قال الاعرابيون ان « الولد» في الجملة الاولى موضوع وحكمه الرفع ، وقام جملة تامة فيها ضمير يعود الى الولد ، والجملة في محل رفع خبر ، أي انها تحتل المركز او (الخانة) التي يحتلها الخبر المرفوع(١) . لا بأس . ولكن في الجملة الثانية ، التي لا تختلف عنها في المعنى ، مبدئياً ، قام فعل لا خبر ، والولد فاعل لا مبتدأ ، أي ان التسمية تغيرت . وفي جملة « الجوّ جميل » الجو موضوع وجميل محمول . لابأس . ولكن عند دخول ان وكان تغير الاعراب وتغير المصطلح . ولن نقف بك طويلا عند جملة التعجب فان في اعرابها (او اوجه اعرابها المختلفة) محاولة لجعلها جملة منطقية فيها موضوع ومحمول . الموضوع « ما » وغيروا الصفة الى فعل ماض تعسفاً وجعلوا الجوّ مفعولا به والجملة في محل رفع خبر . ماذا تقول المدرسة الوصفية ؟ المدرسة الوصفية لا تنكر ان هنالك في كل كلام مفيد موضوعاً يدور حوله الكلام ومحمولا هو ما نقوله عن الموضوع . ولكن المدرسة الوصفية تجهد ان تجد اولا انواع الجمل التي ترد في اللغة (٢) . اذ ليس هنالك نوع واحد بل انواع . وهذه الانواع لها احكامها

---

(١) وهذا خطأ لا يقبل به علماء اللغة المحدثون . لان الاعراب يجري على المفردات ، الاسم والصفة والفعل المضارع ، وليس على الجملة . الجملة ليست معربة او مبنية . الاعراب والبناء من ميزات المفرد لا المركب .

(٢) وهذا هو ما نعنى به الآن : احصاء انواع الجمل في العربية لكي يكون النحو ، الذي هو علم التركيب ، في المستقبل درساً في الجملة وانواعها .

الخاصة . فان جملة « سقياً لك » نوع من الدعاء بالخير لمن تحبه . وهي صورة بدوية صحراوية حيث الماء هو الحياة . وصاحب هذه الجملة يدعو بالماء لصاحبه . معناه واضح وتركيبها هو هذا لا غيره . واما ان نقول : ان هذه الجملة حكم منطقي (كما قال الاغريق) ولذلك وجب ان نقدر اموراً ناقصة . وعليه قدروا ان الجملة ، لتستقيم حكماً منطقياً ، يجب ان تكون :

(اللهم اسق) سقياً (هذا هو دعائي) لك

فالخط الفاصل هو ما يفصل بين عنصري الجملة الموضوع والمحمول ، وما هو بين قوسين نقدره . بأي حقّ نقدر ؟ لوأنّ العرب كانوا حقاً يقولون « اللهم اسق سقياً هذا هو دعائي لك » فما الذي دعاهم الى تغيير التركيب ؟ المدرسة الوصفية لا تقبل اطلاقاً بمبدأ التقدير ، بل تأخذ بواقع اللغة .

(٥) العامل :

وقضية العامل احسن مثال على اقحام الفلسفة والمنطق في دراسة اللغة . في فلسفة العامل والمعمول يظهر جلياً اثر المقولتين الاخيرتين : الفعل والانفعال . اللغة العربية معربة أي أن اواخر الأسماء والصفات والافعال تتغير تبعاً لموقفها في التركيب ، أو الوظيفة التي تقوم بها : ولد ولداً ولد ، معلمون معلمين معلمي ، يفعلون يفعلوا . وطبيعي ان يسأل المرء لماذا ؟ وقد قلنا سابقاً في مطلع المقال ان لك ان تقف من هذه الظاهرة موقفين : موقف

المتفلسف الذي يحاول ان يجد الاسباب والعلـــل ، (وموقف الواصف المقرر) كما فعـــل ابن جني وابن مضـــاء القرطبي فتقول هكذا يقول العرب ، العامل هو الانسان .

غير ان الذين ارادوا اقحام الفلسفة في النحو قالوا ان سبب الاعراب عامل . العامل يسبب الرفع والنصب والجرّ والجزم .

والعوامل سماعية وقياسية ، والعوامل السماعية كلها لفظية . اما القياسية فنوعان لفظي ومعنوي . فالعامل اللفظي مثل «ان» التي تنصب المبتدأ وترفع الخبر ، والفعل يرفع الفاعل وينصب المفعول به . والمعنوي مثل الابتداء ، يقولون المبتدأ مرفـــوع بالابتداء ، وتجرد المضارع من الناصب والجازم يرفعه فيقولون « فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم (١) » . وقد احصوا العوامل اللفظية والمعنوية فهي عند بعضهم مئة ، وعند جرمانوس فرحات ١١٧ وعند ضومط ١١٦ . واذا لم يكن هنالك عامل وجب تقديره ، وتقدير العامل سبب من اسباب الخلاف في مسائل الاعراب والتخريج . فان القدامى لم يختلفوا في ان الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب والمبتدأ مرفوع وانما اصل الخلاف تقدير العامل ، فتجد ان هذا يقدر عاملا

---

(١) وتقدير العامل كان دوماً سبب خلاف شديد بين النحويين . لماذا المبتدا مرفوع ، ولماذا الخبر مرفوع ، ارجع ما يقوله ابن الانباري في كتاب « مسائل الخلاف » .

يرفع فيرفع وذاك بقدر عاملا ينصب فينصب . سأل يوماً عضد الدولة البويهي الامام·ابا علي الفارسي : لماذا ينصب المستثنى في نحو قام القوم الا زيداً . فقال : بتقدير استثني زيداً . فقال عضد الدولة : لم قدرت استثني ؟ هلا قدرت « امتنع زيد » فرفعت « فلم يحر جواباً(١). وانت اذا قرأت مسائل الخلاف(٢) بين لغويي البصرة والكوفة لوجدت ان خلافهم . في الاكثر ، ينحصر في تقدير العامل . لانه اذا كانت مسألة تقدير ، والتقدير اجتهاد شخصي ، فطبيعي ان يقع الخلاف بين الناس .

وكثيرون من القدامى لم يرضوا عن قضية تقدير العامل مثل ابن جني وابن مضاء القرطبي . وكثيرون منهم نقموا على العلل الثواني والثوالث على اساس انها ليست مباحث لغوية فكانوا على حق . خذ مثلا :

أكل الولد تفاحة .

تجد ان فيها ثلاث كلمات محركة اواخرها بفتحة (علامة البنا) فضمة (علامة الرفع) ففتحتين (علامة النصب مع التنوين) . واذا كان الاصل في الالفاظ السكون ، واذا كانت الحركة عارضاً (أي ان الاصل اكل الولد تفاحة) فلماذا حرّك آخر الماضي بفتحة ، ولماذا الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب؟

---

(١) نزهة الالباء في طبقات الادباء ، ص ٣٨٨ .

(٢) ابن الانباري .

وسؤالهم هذا سؤال فلسفي ؟ فان المقولة الأولى عند ارسطو هي الجوهر فالكلمة لها جوهر ، والجملة لها جوهر شأنهما في ذلك شأن كل موجود . فاذا تغير الجوهر وجب ان تسأل لماذا تغيّر؟ ما العلة ؟ ما السبب ؟ ولو ان قدامى اللغويين قنعوا بعلة واحدة لكان الأمر بسيطاً . ولكنهم حاولوا ان يجدوا اكثر من علة واحدة . لماذا الماضي مبني على الفتح(١) والاصل في البناء ان يكون ساكناً . قالوا لانه يشبه المضارع فيأتي صفة وخبراً وحالا وشرطاً والاصل في المعرب ان يكون متحركاً . وانما بني على الفتح « لتعادل خفتها ثقل الفعل » (١) ولكن لماذا الفعل ثقيل ؟ هو لفظة كسائر الالفاظ من الصفات والاسماء والادوات . وهذا معنى قولهم « أوهى من حجة نحويّ » ثم انهم يتابعون التقصي فيقولون لماذا الفاعل (الولد) مرفوع ؟ والجواب عن هذا انه مرفوع لانه فاعل وحكم الفاعل ان يكون مرفوعاً . هذه هي العلة الأولى . ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد . يا ليتهم اعتبروا ان رفع الفاعل هو اصل « وما جاء على اصله لا يسأل عن علته» يقول مبدأ فقهي : « ولكن تابعوا التساؤل فقالوا لماذا الفاعل مرفوع (١) ؟ والجواب : لكي يخالف المفعول به ، او للتفرقة بينه وبين المفعول به . هذا منصوب فذاك يجب ان يكون مرفوعاً .

---

(١) اشعر هنا ، انهم خالفوا مبدأ القياس الفقهي الذي يقول « ما جاء على أصله لا يسأل عن علته » فلماذا لم يعتبروا الرفع في الفاعل اصلا فلا نعود نسأل عن علة الرفع ؟ »

وهذه العلة هي العلة الثانية (الخلاف) . واذا سأل سائل : لماذا لا تعكس الآية فينصب الفاعل ويرفع المفعول به ؟ والجواب عن هذا ان الفاعل في الكلام اقل من المفعول به . ولان الضمة حركة ثقيلة اعطوا الحركة الثقيلة (الضمة) للفاعل والحركة الخفيفة (الفتحة) للمفعول به لأنه اكثر وروداً في كلامهم ، فتكون النتيجة شيوع الفتح في الكلام لا الضم وهذا اسهل واشهى(١) . هذه هي العلة الثالثة (او العلل الثوالث) . وانت ترى ان هذه المباحث تخرج عن النطاق اللغوي الى نطاق الحدس والتخمين . ولذا تقول المدرسة الوصفية الحديثة : دعونا نعتبر الواقع اللغوي هو الاصل وما جاء على اصله لا يسأل عن علته . «أكل الولد تفاحة» هذا ما يقوله العرب وكفى .

(٦) الاعراب وعلاماته :

وملاحظتنا على هذه القضية تتعلق باسلوب معالجة هذه الظاهرة اللغوية . فان طريقة القدامى لا تصلح ان تكون اساساً للتدريس في المدرسة الابتدائية او الثانوية . لا شك عندي ان القدامى لم يروا صعوبة في الامر ، ولكننا نعنى نحن بقضية صغار نحب أن نعلمهم قواعد اللغة على ايسر اسلوب . وتوضيحاً للفوضى

---

(١) وهذا يحتاج الى اثبات . فهل نحن على يقين ان الفاعل اقل وروداً من المفعول به ، قد تكون المنصوبات عامة اكثر وروداً في الكلام . ولكن الأمر يحتاج الى احصاء . ومن قال ان الضمة اثقل من الفتحة او اشهى ؟ علم الاصوات (Phonetics) لا يقرنا على هذه المفاضلة .

البادية في معالجة الاعراب وعلاماته نقول : فرّق الغربيون . جرياً على اسلوب الاغريق والرومان . بين حالات الاعراب للفعل وحالات الاعراب للاسم . وسموا الحالة الاعرابية للفعل mood وهي الدلالة على نوع الفعل من جهة الاخبار وسرد الحقائق والوقائع (indicative) أو الطلب (imperative) او الشرط والتمني (subjunctive) ويضيفون حالة أخرى وهي الحالة التي يدل عليها المصدر عندنا . والمصدر اسم الفعل او اسم الحدوث والحركة ، ولكن في الوقت ذاته يحتفظ بشيء من الفعلية بدليل ان المصدر (to eat) يأخذ مفعولا به. وسموا الحالة الاعرابية للاسم case وهي التغيرات التي تطرأ على الاسم والضمير تبعاً لعلاقة الاسم او الضمير بباقي الكلمات التي يتألف منها الكلام المفيد (الجملة) . وهذا لا يظهر في الاسم في الانكليزية لأن الانكليزية ليست لغة تامة الاعراب ، وانما يظهر في الضمير :

I me my mine
who? whom? whose ?

أما لغويو العرب فلم يفرّقوا بين الاسم المعرب والفعل المعرب بل نظروا الى الاسم والفعل من حيث تغير الحركة الاخيرة لا من جهة المعنى ، ولذا كان تحديد النحو انه « علم باصول تعرف به احوال اواخر الكلمات من جهة الاعراب » .

ثم انهم وضعوا مبادىء عامة ، كما يقتضي المنطق ، ثم

راحوا يضعون قواعد ثانوية ، او فرعية ، لتفسير الشاذ الذي لا يقع ضمن القاعدة العامة . قالوا :

هنالك حركات للبناء ، او علامات ، وعلامات للاعراب . اما علامات البناء فهي :

(١) سكون في مثل من كم(١) .
(ب) فتحة مثل ضرب ، ليت .
(ج) كسرة مثل امس .
(د) ضمة مثل « ت » ضمير المتكلم في ضربت .

أما علامات الاعراب فهي على نوعين : علامات اصلية ، وعلامات ثانوية .

علامات الاعراب الاصلية هي :

(ا) الضمة وهي علامة الرفع في الاسم والفعل .
(ب) الفتحة وهي علامة النصب في الاسم والفعل .
(ج) الكسرة علامة الجر والاضافة وهي تختص بالاسم .
(د) والسكون وهي علامة الجزم في الفعل المضارع .

أما علامات الاعراب الثانوية فتظهر في الاسماء والافعال . علامات الاعراب الثانوية في الاسماء تظهر في :

---

(١) ولكن عند الوصل تحرك

(ا) الممنوع من الصرف (أي الذي لا يقبل التنوين ويجر بفتحة)(١) فان الفتحة تنوب مناب الكسرة ، بكلام آخر الفتحة علامة نصب وجر .

(ب) جمع المؤنث السالم وما يلحق به : عربيات ، عربيات (في النصب والجر) .

(ج) جمع المذكر السالم وما يلحق به : معلمون ، معلمين .

(د) المثنى وما يلحق به : رجلان رجلين .

(ه) الاسم المقصور ويعرب بحركة مقدرة في جميع الاحوال الاعرابية مثل فتى .

(و) الاسم المنقوص ينصب بفتحة : القاضي ، ويرفع ويجر بتقدير علامة الاعراب :

. القاضي في حالة الرفع ، والقاضي في حالة الجر .

(ز) الاسماء الخمسة ولها احكامها الخاصة .

علامة الاعراب الثانوية في الافعال :

(ا) في الافعال الخمسة ثبوت النون علامة رفع ، وحذف النون علامة نصب وجزم .

(٢) في الافعال المعتلة فان حذف لام الناقص ينوب مناب السكون : لم يقض ، لم يدع . اما اذا كان ينتهي بالف فان

---

(١) ويعرف الجميع ان الممنوع من الصرف ينصرف في حالات معينة ، وعندما يريد الشاعر الذي اعطي امتيازاً خاصاً .

علامة النصب والرفع تقدّر ، واذا كان ينتهي بواو او ياء تظهر الفتحة وتقدر في حالة الرفع . خلاصة الامر : هنالك علامات للاعراب اصلية واخرى فرعية أي تلك التي تنوب الحروف فيها عن الحركات (معلمون معلمين) وتنوب الحركة (في مثل رأيت ابراهيم واخذت من ابراهيم) . وسموا حركات الاعراب الرفع والنصب والجر والجزم ، وسموا حركات البناء ضمة وفتحة وكسرة وسكون .

والخطأ المنطقي هنا ، في نظر اصحاب المدرسة الوصفية ، ينحصر في خمسة امور :

(ا) لا مبرّر لاعتبار العلامات اصلية وفرعية .

(ب) لا مبرر للتفرقة في تسمية هذه العلامات فنسمي حركات الاعراب باسماء او القاب تختلف عن اسماء حركات البناء .

(ج) تقدير حركات للاعراب لا وجود لها كما في جاء الفتى ورأيت الفتى .

(د) وضع قاعدة عامة ثم الشروع بوضع قواعد فرعية لتلك الحالات التي تدخل ضمن القاعدة الأولى .

(ه) الاعراب المحلي (او الاعراب على المحل) والاعراب التقديري .

لاحظ ان :

السكون علامة بناء وعلامة جزم .

الفتحة علامة نصب وعلامة جر (من ابراهيم) .

الكسرة علامة بناء وجر واضافة ونصب في مثل رأيت المؤمنات .

الضمة علامة رفع وعلامة بناء .

الالف علامة رفع (رجلان) وعلامة نصب أباك .

الواو علامة رفع .

الياء علامة نصب (معلمين رجلين) وعلامة جر .

ثبوت النون علامة جزم ونصب : لم يدرسا لن يدرسوا .

حذف حرف العلة علامة جزم : لم يرم ارم .

ان علم اللغة الحديث ، تسهيلا في الوصف ، يقتضينا ان نعيد تصنيف الالفاظ ، من جهة اعرابها ، في فئات مختلفة . وقد احسنت لجنة تيسير قواعد تدريس اللغة العربية المصرية صنعاً عندما اقترحت ان كل علامة اعراب هي اصلية ، وان المنطق يقتضي ان نعيد النظر في تصنيف الالفاظ . وهنا تلتقي اللجنة المصرية الكريمة مع المدرسة الحديثة . فانه ايسر تعلماً ، في نظرنا ، ان نقول : الالفاظ العربيـــة المعربة ، اسماء كانت ام افعالا تنحصر في تسع فئات :

(١) التي يظهر فيها ثلاث حركات : ولد ولدا ولد .

(٢) الممنوع من الصرف وتظهر فيه الضمة والفتحة ولا ينوّن (١) .

(٣) جمع المؤنث السالم والملحق به وعلامات الاعراب فيه .

(٤) جمع المذكر السالم والمحلق به وعلامات الاعراب فيه .

(٥) المثنى وعلامات الاعراب فيه .

(٦) المضارع واعرابه .

(٧) المنقوص واعرابه .

(٨) المقصور واعرابه .

(٩) الاسماء الخمسة واحكامها .

ولا يتبادرن الى الاذهان اننا نقترح ان يكون هذا التصنيف تصنيفاً يصلح ان يكون اساساً في التدريس ، كلا ، انما نقترح ان تدرّس علامات الاعراب عندما تدرس كل فئة من هذه الفئات . وقد طبقنا هذا فعلا في كتابنا « تبسيط قواعد اللغة العربية : اقتراح ونموذج . »

---

(١) وطبيعي ، كما قلنا مراراً ، ان يكون هنالك شذوذ واستثناءات . وهذا يصدق على لغات كثيرة . وعلى الطالب ، الطالب الذي ينتمي الى اية لغة ، ان يهيأ لمثل هذه الحالات .

(٧) الاعراب المحلي (اوعلى المحل) والتقديري :

وهنا مثال آخر على اقحام الفلسفة والمنطق في الدراسات اللغوية . وهنا يظهر اثر المقولة الاولى عند ارسطو : مقولة الجوهر . ذكرنا آنفاً ان للكلمة جوهراً ، وجوهر قام قوم وجوار جواري . كذلك للجملة جوهر ، فاننا عندما نقول « في الدار رجل » يعتبر اللغوي ان جوهر الجملة ناقص فيقدر لفظة « قائم » او « موجود » او يكون . والحقيقة ان المعنى تام لا يحتاج الى تقدير شيء ناقص ليتم المعنى . اما في اللغات الغربية فان الجملة ناقصة ، ويخيل الي ان اثر فلسفة الجملة عند الاغريق هي سبب التقدير في العربية . ولنأخذ كلا منهما بشيء من التفصيل :

الاعراب على المحل :

ويكون ذلك في الاسم المبني وفي الجملة عندما يكون الاسم المبني او الجملة في موقع من التركيب يتطلب ذكر الحالة الاعرابية . وتوضيحاً : جاء هذا ، نقول عن هذا انه مبني « في محل » رفع فاعل اي انه يشغل محل كلمة معربة ، لو كانت محله لكانت مرفوعة مثل جاء ولد . اما الجملة التي تعرب على المحل فمثل جملة « دخل المعلم وهو يضحك » فان جملة وهو يضحك » في محل نصب على الحالية ، لأن محلها يمكن ان تشغله لفظة معربة مثل دخل ضاحكاً ، فهي معربة على المحل . والغلط

الفاضح هنا في المنطق ان الجملة لا تكون معربة ام مبنية ، لأن الاعراب والبناء من خصائص الكلمات المفردة ، ولكن التركيب لا يكون معرباً ولا مبنياً .

الاعراب التقديري :

وهنا تكمن البلية الكبرى في النحو : التقدير ! تقدير لا وجود له الا في دمـــاغ النحوي . والتقدير يكون في المواضع الآتية :

(١) في المصدر المؤول ، أي ان والمضارع بعدها ، في مثل اريد ان اقول لك ... تقديره اريد القول . والمصدر المؤول من ان والمضارع في محل نصب مفعول به من الفعل اريد .

(ب) في الكلمات المعتلة الآخر (الناقصة والمقصورة) مثل « جاء القاضي » نقدر ضمة على الياء لعلة الثقل ، ورأيت الفتى أو جاء الفتى فاننا نقدر ضمة وفتحة وكسرة لعلة التعذر .

(ج) اشتغال المحـــل بحركة تمنع ظهور حركة الاعراب الحقيقية . ففي مثل هذه الحالة يقدرون الحركة . ونمثل لك بثلاث جمل توضيحاً لهذه القضية :

لست بهازىء .

اعجبني نظم ابنك الشعر .

هذا كتابي .

ففي الجملة الأولى نقول في اعراب بهازىء انها مجرورة بحرف جرّ زائد (١) منصوبة بفتحة لم تظهر عليها لاشتغال المحل بحركة الجر . وفي اعراب الثانية نقول ان « نظم » فاعل اعجب . وهي مضافة الى ابن والشعر مفعول به للمصدر «نظم» والفاعل في « نظم » هو ابن المضاف اليه وحقه ان يكون مرفوعاً « ابنك » ولكن منع ظهور الضمة المقدرة اشتغال المحل بحركة الاضافة (الجر) . وفي اعراب كتابي نقول انها مرفوعة لانها خبر وعلامة الرفع ضمة مقدرة على الباء منع ظهورها اشتغال المحل بحركة تناسب الياء .

فانت ترى من هذا كله ان قدامى اللغويين اعتبروا ان للجملة جوهراً ، وان اي خروج على هذا الجوهر يحتّم عليهم ايجاد علة او سبب لهذا الخروج . اما المدرسة الحديثة ، المدرسة الوصفية ، فتفضل ان نعتبر ان هنالك نماذج للكلام لها أحكامها الخاصة . ومن التعنت ان نعتبر جملة « قام زيد و « الجو لطيف » انهما النموذج ثم نحاول ان نطبق احكامهما على سائر الجمل التي تختلف عنهما بتقدير واضمار وتأويل . فواضح ان جملة « هذا كتابي » تشبه تركيباً جملة « الجو لطيف » ولكن علامات الاعراب فيهما

---

(١) ونحن لا نحب تسميته « بزائد » الأولى ان نقول انه تركيب فصيح ، فاذا كان قولا فصيحاً نقبله فلا يعود هنالك مبرر لقولنا انه « زائد » .

مختلفة . ومن التعنت ، تقولها مرة اخرى ، ان نحمل اعراب « هذا كتابي » على اعراب « الجو لطيف » . الأولى ان نقول لطلبتنا عند تقسيم الكلمات الى فئات بالنسبة الى الحركة الاخيرة في الاعراب ، ان الاسم المضاف الى ياء المتكلم يلزم حالة واحدة . وقد نلحق هذه القاعدة (ونعدها الفئة العاشرة) بالقاعدة التي ذكرناها على صفحة ١٥٣ .

(٨) التنوين :

واخيراً نقول كلمة في التنوين كما درسه القدامى وكما تريدنا المدرسة الوصفية ان ندرسه . وفي التنوين يظهر اثر الفلسفة في الدراسة اللغوية ظهوراً واضحاً .

قال القدامى ان هنالك خمسة انواع من التنوين (!) :

(ا) تنوين المقابلة ويلحق جمع المؤنث السالم مقابلة لنون مذكره (!) .

(ب) تنوين تمكين في الاسمية (!) كما في « محمد » ، ويلحق الاسم المفرد وجمع التكسير المنصرف .

(ج) تنوين تنكير ، ويلحق الاعلام الاعجمية المختومة ب « ويه » كما في سيبويه ونفطويه وخالويه (!) والاعلام الممنوعة من الصرف سواء اكانت اعجمية او عربية ذلك لتنكيرها ، كما في قولنا رأيت سيبويه وسيبويها آخر ، وسمعان وسمعاناً آخر .

(د) تنوين عوض عن جملة كما في حينئذ (التنوين عوض عن جملة تسبق لفظة حينئذ) وتنوين عوض عن اسم في مثل « كلّ » وتعويض عن حرف ساقط كما في جوار . ومحام .

(هـ) تنوين يلحق بالقوافي . وسموا النون هذه « نون الترنم » او « نون الربابة » كما في البيت المشهور .

اقــلي اللوم عاذل والعتابن

وقولي ان اصبت لقد اصابن

حيث لحقت النون الاسم والفعل اصاب (!)

يلاحظ القارىء الكريم اننا وضعنا علامة التعجب بعد عدد من الجمل ، لان التسمية والتعليل على شيء من الغرابة . لماذا تنوين جمع المؤنث السالم هو تنوين مقابلة لنون مذكره ؟ وهو محمدٌ وولد وأرض تحتاج الى تمكين في الاسمية ؟ هل يعني انها غير متمكنة في الاسمية اذا لم تكن منونة ؟ وهل ثلاثة اسماء ترد في العربية : سيبويه ونفطويه وخالويه تحتاج الى قاعدة والى فلسفة في تنوينها او عدم تنوينها ؟ ولماذا التنوين في «كلّ» و« بعض » و«حينئذ» هو تنوين عوض عن ناقص ؟ وهل « نون الربابة » أو « نون الترنم » قاعدة عامة ام انها وردت شذوذاً ، او لضرورة القافية ؟ وهل تحتاج الى قاعدة ؟ لذا وضعنا علامات التعجب .

لو طبقنا مبدأ الوصفية على اللغة العربية ، وعلى هذه القضية بالذات ، لقلنا :

التنوين ظاهرة لغوية تلحق الاسماء (باستثناء قسم ضئيل) في العربية . فالاسم منون اذا لم يكن هنالك مانع يمنع تنوينه(١). الحالة الطبيعية لكلمة « ولد » هي ولد (ولدن) ولدا (ولدن) ولد (ولدن) ولكننا لا نكتب هذه النون (كما يكتب اهل العربية الجنوبية ميماً في آخر الاسماء : جبلم بيتم ... الخ) بل نرمز اليها بتكرار الحركة . ولا ضرورة لتعليل هذه الظاهرة ، لاننا لا نعرف لها سبباً . وكذلك لا ضرورة لاعتبار تنوين كلٌ تنويناً يختلف عن تنوين ولـــد . عندمـــا نقول «كلٌ يموت » او« ولد يلعب ... » فان التنوين في كلٌ وولد ، من وجهة النظر الوصفية ، هو واحد . والتنوين ، كما في«ولد» يدل ان المنوّن غير محدّد ، او غير معروف ، بل شائع في جنسه . واما « الولد » فان مدلولها محدد : نعني ولداً معيناً محدداً معروفاً عند المتكلم والمخاطب . هذا كل ما يجب ان يقال في التنوين . وطبيعي ان يكون هنالك خروج عن القاعدة العامة . لكل لغة شذوذها . اللغة وليدة العاطفة والقلب ، ووليد العاطفة والقلب لا يخضع لنظام رياضي منطقي صارم . وعلى المعـــلم ان يهيء التلميذ دوماً لتقبـــل الشذوذ . في الانكليزية مـــاض وفي تصريف بعض الأفعال شذوذ ما بعده شذوذ .

---

(١) اذا دخلت عليه ال التعريف واذا اضيف ، واذا كان ممنوعاً من الصرف .

وختاماً نقول ان مشكلة تدريس العربية تحلّ اذا تفهمنا اولا صلب المشكلة . واظن اننا بذكرنا بعض الامثلة على اقحام الفلسفة والمنطق في دراسة اللغة ، قد اوضحنا للقارىء العادي صلب هذه المشكلة . وطبيعي ان يكون هنالك مشاكل اخرى اساسية تحتاج الى درس كقضيـــة المصطلـــح ، والتبويب ، وقصر النحو على دراسة انواع الجمل لا على دراسة اواخـــر الكلمة . نحن نعتقد ان اعتناق مبدأ الوصفية في منهج الدراسة اللغوية يحل لنا كثيراً من مشاكل التدريس .

* * *

تيسير تعليم العربية

اساليب تدريس العربية المتبعة

ها قد مر على تدوين قواعد اللغة العربية ما ينوف علـى الألف سنة ولما يطرأ عليه تعديل بعد يقربه الى افهام الاولاد او يحببه الى نفوسهم .

ان الغرض من تدوين احكام اية لغة هو الحفاظ عليهـا من الفساد وتسليمها نقية صافية الى الجيـل الطالع . وقد ادرك قدامى الصرفيين والنحويين الغاية القصوى من ضبط اللغة في احكام وقواعد . وقد ابدوا من الدقة العلمية ، ومن العمـق في التقصي ، ومن الجلد في البحث ، ما جعل غير المستعرب يشيد بفضل العرب على العلوم اللسانية . ولكنهم اخطأوا في الوسيلة . ونحن لا ننحي باللائمة على المؤلفين اللغويين القدامى لانهم خدموا اغراض عصرهم . انما نلوم المحدثين والمعاصرين لالتزامهم الفلسفة اللغوية التي اخذ بها المتقدمون ، ولاتباعهم الاسلوب ذاته في التأليف .

ولكن العالم قد خطا خطوات مباركة في حقـــــول البسيكولوجيا واللغة والتّربية . ويحسن بنا ان نساير العلم في حقل اللغة وتدريسها كما سايرناه في الحقول الاخرى .

يبدو لنا ان المآخذ التّربوية الرئيسية (بالنسبة للاطفـــال والاحداث) التي نأخذها على اساليب تدريس العربية تنحصر في النقاط التالية :

(ا) فلسفة القواعد .
(ب) قصر التأليف على جماعة المتفقهين .
(ج) تعقيد في التبويب .
(د) اسراف في المصطلحات الغامضة .
(ه) قصر القواعد على الشكل دون المعنى .
(و) كتب التدريس .

(ا) فلسفة القواعد :

نضج علم اللغة العربية مع نضج علم الكلام . واذا نظرت في فلسفة القواعد يتضح لك اثر علم الفلسفة . فقـــد حاول الاقدمون ان يخضعوا الظواهر اللغوية الى نظام العلة والمعلول . والعامل والمعمول . والفاعل والمنفعل ، أي انهم حاولـــوا اخضاع اللغة للمنطق وللفلسفة . واللغة لا تخضع لمنطق ، لانها اقدم من المنطق ولا حاجة بها للفلسفة . او على الاقل لاحاجة

لنا بالفلسفة في تعليم اللغة للاولاد . نشأت اللغة مع الغناء والرقص والتعبير العاطفي ، ولم تنشأ عن الفكر والمنطق . ومن هنا كان الخطأ في اخضاع اللغة الى مبدأ الوحدة والشموله . ولكنهم وجدوا بعد حين ان اللغة لا تخضع لقانون رياضي عام . فكانت القوانين الاولية ، ثم الفرعية ، ثم القوانين الفرعية للفرعية .

وقد لحظ القدماء بعض التعسف البادي في قوانين النحو . فقد نبّه ابن جني في خصائصه الى ان العامل في اللغـــة هو الانسان لا اثـــر كلمة في كلمة . وألّـــف ابن مضاء القرطبي كتاباً سماه « الرد على النحاة » حاول فيه دحض مبدأ العامل والعلة . العامل والعلة والفاعل والسبب وما اليها من الامور التي « نتخبأ » وراءها في تعليلنا الظواهر اللغوية مردّها جميعاً الى الانسان . والانسان هو العامل الأوّل والاخير في اللغة .

(ب) لم يكن التأليف للاطفال والاحداث :

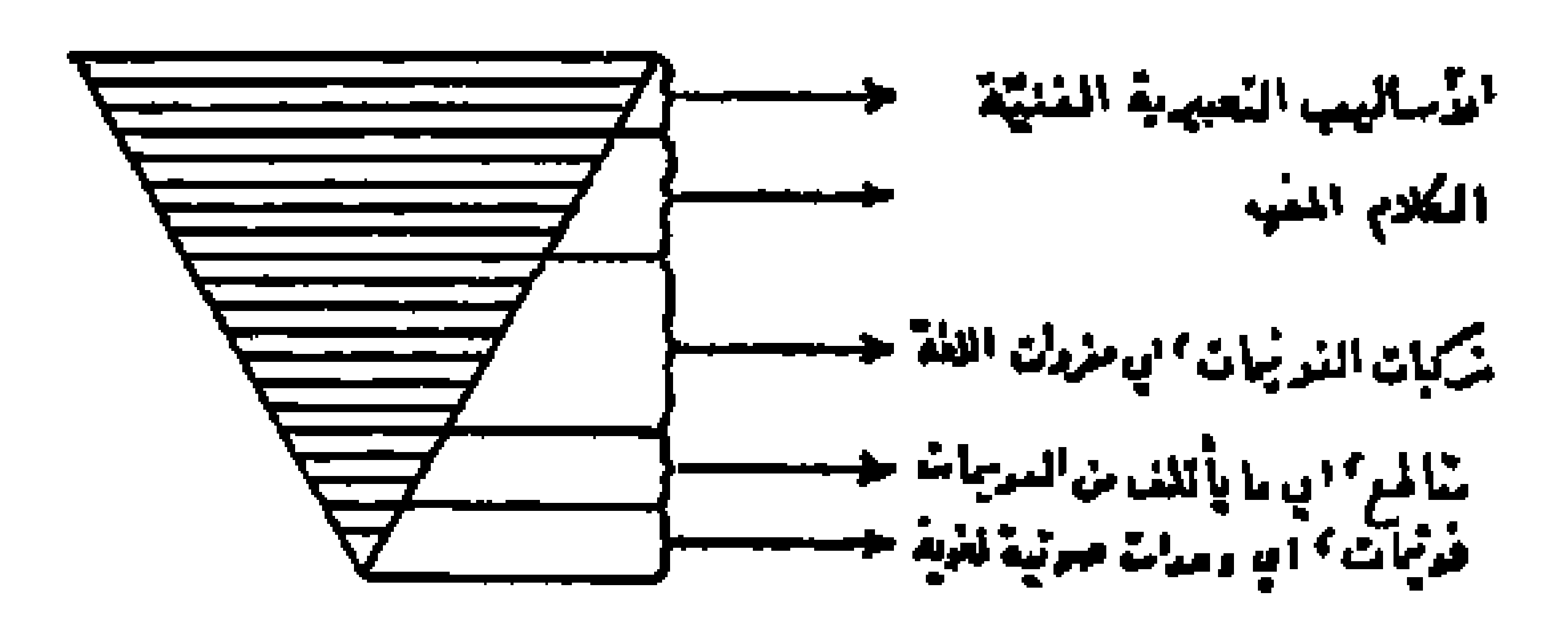
كانت العلوم اللسانية رياضية عقلية في المنطق والتخريـــج لطلاب الفلسفة وعلم الكلام وعلوم الدين ونقــــد الادب . والتأليف للاطفال والاولاد اعسر مطلباً من التأليف للكبار . وقد جاء التأليف على غاية من التقصي في الوصف . وعلى غاية من التعقيد في اللغة والمصطلح . وادهى من هذا وذاك ان تظل هذه الكتب البعيدة عن روح العصر المثال الذي يحتذى في التبويب والمصطلح والاستشهاد ، مع الملاحظــة ان القدامى

انفسهم شعروا بهـذه الاخطاء في التأليف فنشطوا فيمـا بعد « للشرح » و « التقريب » و « التبسيط » و « التعليق » و « التشذيب » في كتب تدل عناوينها على أن مؤلفيها ادركوا ان علم الصرف والنحو لم يعد في متناول الرجل العـادي . ويكفيهم فضلاً انهم حاولوا . تبسيط هذا العلم وتقريبه من الافهام . ولكننا نشعر انهم لم يحلوا المشكلة . وقد حـاول بعض المحدثين تأليف كتب في القواعد تكون اقرب منـالاً من كتب القدامى . ولكنها جاءت تختلف في روحهـا وتنسيقها ومصطلحاتها وفلسفتها اللغوية عن امهات كتب اللغة القديمة . قد يكون فيها شيء من السهولة في عرض القـاعدة وسوى هذا فانها صورة عن كتب القدماء رغم اصرار بعض المؤلفين انهم « شالوا الزير من البير » .

(ج) التبويب :

تبويب القواعد كما وضعها أئمة هذا العلم مدعاة للتشويش . نعم للقدماء فضل في التفريق بين بابي الصرف ولكننا نشعر ان هنالك مجالاً للتبسيط والتحديد يتلاءم وعقلية الاولاد .

افضل تحليل للغة هو الذي يقرّه علم اللغة الحديث (Linguistics) اللغة اشبه بهرم معكوس اي قائم على رأسه كما ترى في الصورة. يقوم هذا الهرم على بضعة اصوات لغوية تسمى الواحدة منهـا « فونيما » وهي التي يرمز اليها باحرف الهجاء . ثم من الفونيمات



تتألف المقاطع التي يمكن ان تتالف تبعاً لذوق الشعب الذي يتكلم هذه اللغة او تلك . ومن المقاطع تتألف الكلمات ذات المعاني المعاني المقررة في حنايا الاختبار . ومن الكلمات تتألف الجمل . وعلى القمة الاساليب التعبيرية الجميلة . وافضل درس للغة هو الدرس القائم على هذه المراتب :

(ا) مرتبة الصوت .

(ب) مرتبة المقاطع .

(ج) مرتبة المفردات .

(د) مرتبة التركيب .

(هـ) مرتبة الاسلوب .

ولك ان تضيف مراتب اخرى كمرتبة المعجمية ، ومرتبة المقابلات اللغوية ، ومرتبة التطور النحوي . ولكن يجب ان نبقي في بالنا ان دراسة بعض هـــذه المراتب لا تقـــع في نطاق الدراسة الابتدائية والثانوية بل تترك للدراسة الجامعية . مثلاً دراسة اللغة على مرتبة الصوت علم قائـــم بذاته يعرف

بعلم الفونتيك (Phonctics) وهو درس يتناول الاصوات من ناحيتها الفيزيولوجية والفيزيائية . ويدرس مخارجها وصفاتها والتغييرات التي تطرأ عليها بفضل عوامل مختلفة . وهو درس جليل الفائدة بواسطته نستطيع تعليـــل الاعلال والادغـــام والحذف والزيادة وربما بعض الحركات الاعرابية . ولكنه ليس درساً في متناول الاطفال والاحداث . ونحن لم نذكر هذه المراتب اقتراحاً لتدريسها في المدارس الابتدائية والثانوية. كلا ، وانما نستطيع اتخاذ هذا التحليل العلمي اساساً لوضع القواعد في ترتيب متناسق متصل يتمشى وروح اللغة .

خذ كتب القواعد القديمة منها والحديثة ثم حاول ان تجد فيها فصلاً واحداً . أو باباً واحداً . يبحث الصفة . كـــل ما يجب ان يعرفه الولد عن الصفة . ولكنك عبثاً تحاول لانك تجـــد الصفة موزّعة بين بابي الصرف والنحو وتحت المواضيع الآتية :

(١) الصفة
(٢) الصفة المشبهة
(٣) اسم الفاعل
(٤) اسم المفعول
(٥) صيغ المبالغة
(٦) افعل التفضيل

(٧) النسبة

(٨) النعت

وقد يكون هناك ابواب اخرى في الصرف والنحو يؤتى فيها على ذكر الصفة في سياق البحث . فيخرج الطلاب وهم لا يعرفون شيئاً عن الصفة . فلماذا لا نعلم الطلبة الصفة وكل ما يتعلق بالصفة : وزنها ، اشتقاقها ، تثنيتها ، جمعها ، تذكيرها ، تأنيثها ، التفضيل ، المطابقة ، الحالات الاعرابية ... الخ . كوحدة اي كموضوع واحد مترابط الاجزاء ، وبمصطلح واحد هو الصفة وفي باب واحد هو باب الصفة ؟

(د) الاسراف في المصطلحات الغامضة البعيدة عن متناول الاولاد

اعتقد ان جمهرة المعلمين يعترفون ان اكثر مصطلحات هذا العلم غامضة . فان الشقة بين مدلولاتها الأولى وبين ما ترمز اليه في هذا العلم واسعة وتشكل عثرة لأكثر الطلاب : مسند ومسند اليه ، المضارع ، المبتدأ ، وصيغ المبالغة ، الصفة المشبهة ، ممنوع من الصرف ، لا محل له من الاعراب ، صلة العائد ، وغيرها كثير من مصطلحات يفهمها علماء اللغـة والمتفقهون . ولكنها لا تعني شيئاً عند اكثر الطلاب . وقد قال لنا الطلبة مراراً وتكراراً : يا استاذ مصطلحات الصرف والنحو

تبخرت ! تبخرت سريعاً لانها لم ترسخ ، ولم ترسخ في الدماغ لانها غامضة .

نحن لا نقترح ان نرمي بالمصطلحات كلها الى البحر . فاننا سنحتفظ في كتبنا العتيدة(١) بجملة صالحة من مصطلحات القدامى : اعراب ، صرف ، رفع ، نصب ، جزم . ولكننا استغنينا عن كثير منها ، واستعضنا عن بعضها باسماء اسهل فهماً واقرب منالاً ، مثل « موضوع الكلام » بدل مبتدا « والفعل الحاضر » بدل الفعل المضارع . وطريقة درسنا للغة بما فيها من حذف صناعة الاعراب والاستعاضة عنها بتحليل الجملة الى عناصرها قد قللت من عدد المصطلحات .

(هـ) قصر القواعد على الشكل :

ليس الغرض النهائي من ضبط اللغة في احكام شكل الكلمة وقواعدها وما يطرأ عليها من تغييرات . يهدف درس اللغة الى الفهم والافهام وحسن التعبير . ولكن اعتبر هذا التعريف الشائع للنحو ، التعريف الذي ندرسه لطلابنا :

« النحو علم باصول تعرف به احوال اواخر الكلم اعراباً وبناء . والغرض منه معرفة الاعراب الذي هو رفع الفاعل

---

(١) لقد وضعنا كتاباً في القواعد ضمناه آراءنا في تعليم العربية . والكتاب لا يزال مخطوطاً بانتظار فرصة مواتية لنشره .

ونصب المفعول وجرّ المضاف » ما شاء الله ! علم نرهق به اطفالنا لنقول لهم على أي شكل تكون اواخر الكلمات ! وهل الغرض من هذا العلم الاعراب ؟ هذا جزء من اللغة ولكنه ليس اللغة .

ان كتب الصرف والنحو ، القديمة منها والحديثة ، تترك في نفس الولد انطباعاً ان مادة الدرس كلمة وكلمات وحركات : ضمة وفتحة وكسرة ورفع ونصب وجر . اما ان تكون اللغة طريقاً للفكر ووسيلة للتعبير ، اما ان تكون اللغة جمالاً وبهجة ومتعة ، فأمر غير وارد في البحث . التوكيد في هذه الكتب على « أعرب » وعلى « لماذا ؟ » بدلاً من أن يكون « أنشىء » « وهكذا يقول الناس » او « هكذا تحدرت الينا اللغة . » ليس للغة كيان بدون الانسان . اللغة من الناس وللناس ، وليست ضمة او فتحة . اللغة معنى ، ويجب ان تدرّس على انها معنى لا شكل .

(و) كتب التدريس :

وأول مأخذ نأخذه على كتب التدريس لغتها ومادتها .

والمأخذ الثاني الخطير الذي نأخذه على كتب تدريس العربية تعليم الاطفال الصرف والنحو على الاساليب القديمة التي تحدّرت الينا من السلف الصالح وبالمصطلحات ذاتها وبالفلسفة

اللغوية ذاتها . وقد قلت مراراً وتكراراً وسأظل اقول الى أن يسمع اولو الامر في وزارات التربية ان الصرف والنحو نوع من التجريد ، نوع من الفلسفة ، ولا يستطيع الاطفال ادراك المجردات والقضايا الفلسفية اللغوية .

« وقد تقول ولكن الذنب ذنب المؤلفين فان واضعي كتب التدريس ليسوا من ذوي الاختصاص بل من المتاجرين والمستغلين ممن يعيشون على هامش وزارات المعارف . وقد تكون في اعتراضك على حق فاني انا ايضاً إقول بان الذي يكتب للطفل يجب ان يكون اولاً معلماً مجرّباً مختمراً ، وثانياً مربياً بسيكولوجياً ممتازاً ، وثالثاً فيلسوفاً وفناناً . ولا تضحك فاني جادّ كل الجدّ ، لانه ايسر على امرىء ان يخاطب جماعة من العلماء من ان يخاطب اطفالاً . لم يُراعِ المؤلفون لغة الطفل ، ولم ينتقوا مفردات الطفل ، ولم يراعوا عقل الطفل ، ولم ينزلوا الى مستواه ، ولا سايروه في ميوله وتفكيره ، ولا عايشوه في لذته ورغبته وخياله . بل الأمر على عكس هذا فانهم انهالوا عليه بسيلٍ من الخطب والمواعظ والاخلاقيات والوطنيات السمجة الثقيلة التي لا يدركها عقله ، لا بل لها في قلبه ردّ فعل معاكس . ونحن نقول انه اذا كان القحط والجدب في فن التأليف عندنا قد بلغ الدرجة المزرية فما علينا الا ان نترجم عن كتب الغرب (١) . » »

---

(١) « نحو عربية ميسرة » ص ١٥١ .

اول اصلاح يجب ان تقوم به وزارة التربية اعادة النظـــر في كتب تدريس العربية ، وسترى هذه الوزارات ، اذا لم تُقْبَل الشفاعات ، ان اكثر هذه الكتب ، ولا سيما كتب الاطفال ، يجب ان يُحرَق ولو كره المؤلفون .

* * *

تيسير اساليب تدريس العربية

يقولون ، وفي قولهم حق ، ان الهدم ايسرُ من البناء ، وأنّ النقد الهدام ايسرُ من النقد البنّاء . اما نحن فغايتنا البنـــاء لا الهدم .

تيسير اللغة العربية ، كما يجب ان يكون التيسير ، أمـــر صعب المنال في هذه الظروف التي نعيشها . ونحن نعتقـــد مخلصين ان البحث في التيسير « ضرب من اللغو والسرف » كما قال منصور فهمي عند كلامه عن الخط العربي . ولكن التيسير أمر سهل المنال في تيسير اساليب تدريس العربية . ونحن اذا اعدنا النظر في كتب التدريس ، في فلسفة القواعد ، في عرض القاعدة ، في التبويب ، في الغاية القصوى من تعليم اللغة ، اقول اذا نحن اعدنا النظر في هذه الأمور موضوعيـــاً فاننا نساهم الى حدّ بعيد في القضاء على النفرة من تعليم العربية ، وفي القضاء على هذا الضعف اللغوي البادي في هذا الجيل ، ونوفر على الطلبة سنوات ثمينة من اعمارهم .

وتدريس العربية مشكلة متعدّدة الوجوه : المادة ، البرنامج

الذي تضعه وزارة المعارف . اعداد المعلم ، وضع الكتب المشوّقة الممتعة المنمية للخيال والذوق ، واساليب التدريس . ولسنا في وضع نستطيع معه ان نعالج جميع هذه الأمـــور لنقص في اختبارها . انما نشعر ان عندنا رأياً في طريقة تعليم العربية نحب ان نشرك فيه غيرنا من مدرسي العربية . فاننا نتوصّل الى الحقيقة عن طريق التشاور والدرس والنقـــد والتمحيص . ولم يُعطَ احدنا العلم كاملاً ولا الفهم كاملاً ولا الاختبار كاملاً ، فجدير بنا ان نتعاون جميعاً للوصول الى ما فيه الخير العام .

يتلخص رأينا في تعليم العربية فيما يلي : اولاً حفظ القاعدة لا يعين الطالب في تعلمه اللغة . تتعلم اللغة بالقياس وبالمثل . فان ابني رضا يدرس الآن ، وفي هذه الساعة ، قواعد آخر المضارع اذا اتصل بالضمير البارز ولا سيما الافعال الناقصة . يريد ان يتعلم متى نقول يرمُون ويخشَون . هذا امر ضروري ولكن القاعدة كما هي في كتابه « النحو الواضح » على غاية من الغموض . أليس ايسر له أن يتعلم هذا بالمثال والقياس ؟ ثانياً نستطيع تعلم اللغة بدون فلسفة العلية . وقد نبهنـــا إلى هذا الأمر العرب القدامى مثل ابن جني الذي يقول ان العلة مردها الى الانسان نفسه . أي اننا اذا قلنا « ان الجوَّ لطيفٌ » فان الجوَّ نصبت هنا لأن العربي يقول هذا وليس غيره . وقد هاجم ابن مضاء القرطبي فلسفة العامل في كتاب سماه « الرد على النحاة » .

وتوضيحاً ، وقبل ان نعرض مخططنا الذي نقترحه لتعليم العربية على اساس تقريري وصفي (descriptive =) ، نرى ان نوجز اولاً بعض المبادىء العامة التي نسير على هديها . وقد عرضنا سابقاً هذه المبادىء في مقال لنا عنوانه « هذا الصرف وهذا النحو ! » نشر في مجلة الابحاث (الجزء الأول ، آذار سنة ١٩٥٥) واننا لا نرى ضيراً في اعادة بعض هذا المقال تعميماً للفائدة .

(ا) يجب الا تُعلّم القواعد في الدراسة الابتدائية :

وذلك لأن الصرف والنحو نوع من التجريد ، نوع من الفلسفة اللغوية . وهذا فوق مدارك الاطفال . ثم ان مصطلحات هذا العلم اصعب من ان يتصورها الطفل : الصرف النحو ، المبتدأ . المضارع ، الصفة المشبهة ، المصدر ، الحروف المشبهة بالأفعال ، سد مسد الخبر ، مرفوع لفظاً منصوب محلاً ، لا محل لها من الاعراب ، المرفوع ، المنصوب ، المجرور ... الخ

ولكن قولنا انه لا يصح تعليم القواعد في المدارس الابتدائية لا يعني عدم تعليم اللغة على الاطلاق . هذا لا يخطر لنا ببال . ولا يعني ان الطفل يجب الا يتعلم قواعد وأحكاماً لغوية. هذا ايضاً لا يخطر لنا ببال . انما نريد ان يعلم الطفل اللغة بالمثل وبالانشاء وليس بغيرهما . فاننا اذا اردنا ان نعلم اطفالنا اوزان

الفعل فلا نقول لهم اوزان الفعل هي فَعّل فعّل ... استفعل... الى آخر الاوزان . فان فعل وأفعل وفعّل ... الخ . لا معنى لها عند الطفل ما لم يكن عنده ذخيرة لغوية غنية فيها افعال عديدة من نوع فعل وفعّل وأفعل .

انه لاسهل ان يتعلم الطفل المضارع والامر واسمي الفاعل والمفعول بالمثل والقياس من ان يتعلمها باعطائه قاعدة لا يستطيع تطبيقها .

هل يعلم القارىء ان جل ما يعرفه الناس (باستثناء مدرسي الصرف والنحو !) من العربية مرده الى الحفظ ، الى المثـــل والقياس ؟ سَلْ اديباً : كيف يصاغ فعل المضارع ، فانـــه لا يستطيع ان يقول لك : يصاغ المضارع من الماضي بزيادة احد حروف انيت (او نأتي) في اوله مفتوحاً في كذا وكذا مضموماً في كذا وكذا ، وكسر كذا وضم كذا وفتح كذا ! لا ، انه لا يعرف شيئاً من هذا كله . ولكن سله ما المضارع من « اشترى » فانه حالاً يجيبك : « يشتري » بدون قاعدة .

(ب) يجب ان يكون تعلم القواعد على مراتب وبشكل وحدة :

قواعد أية لغة كانت وحدة تامة لا تتجزأ ، ويجب ان تدرس كوحدة . وهذا ما يفرضه علينا منطق اللغة ذاتها . ان اللغة كالبناء التام الجميل يتألف من ثلاثة امور :

١ ــ من مواد خام ، ويقابلها في اللغة المفردات(١) .

٢ ــ من شكل او تركيب هندسي ، وهو جوهر البناء ويقابله في اللغة علم التركيب (Syntax) حسب مصطلحنا ، وعلم النحو حسب مصطلح القدماء .

٣ ــ من فن وزخرف وهو مما يضفي على المواد الخام ، وعلى الشكل ، رونقاً وجمالاً وسحراً . ويقابله في علم اللغة ، حسب مصطلحنا ، علم الاساليب التعبيرية ، وعلم البيان والبديع والفصاحة والبلاغة وما اليها حسب مصطلح القدماء . اي ، لك ان تنظر الى اللغة انها هرم معكوس قائم على رأسه كما ترى في الرسم (صفحة ١٦٥) . ترى في القاعدة عدة وحدات صوتية لغوية لا يزيد عددها عن الثلاثين. ثم تأتي فوقها المقاطع ، ثم مرتبة المفردات ، ثم الكلام المفيد ، ثم الاساليب التعبيرية الفنية . هذا ادق تحليل علمي لاية لغة ، وعلى هذه المراتب يجب ان يجري تدريسها :

ا ــ مرتبة المفردات ونسميها علم الاشتقاق .

ب ــ مرتبة التركيب ونسميها علم التركيب (النحو سابقاً) .

---

(١) وهنالك مرتبة ادنى من المفردات وهي مرتبة الاصوات اللغوية (Phonemes) او الفونيمات التي منها تتألف المفردات . ولكن درس اللغة على مرتبة الصوت (Phonology) ليس من اختصاص الاولاد فلا يدخل في نطاق الدراسة الثانوية .

ج — مرتبة الاسلوب ونسميها علم الاساليب التعبيرية .

بأيها نبدأ ؟ من الطبيعي ان نبدأ بالتركيب ، بالانشاء . ويجب ان نكون قد بدأنا بتعليم هذه المرتبة في مرحلة الدراسة الابتدائية. بعد المرحلة الابتدائية يكون عند الطالب الثانوي ذخيرة لغوية كبيرة على اساسها نستطيع انْ نتقدم بعرض اليه تحليلي لما يعرفه ، لما يحفظه ، فيكون تدريس القواعد درساً شيقاً ممتعاً ، ويكون في الوقت نفسه درساً في الرياضة العقلية . ولكننا نؤثر ان نبدأ بعلم الاشتقاق .

يجب افهام الطالب ان العربية لغة اشتقاقية . الكلمة في العربية كالشجرة النامية الوارفة ، تقوم على جذع (الجذر الثلاثي) ومن الجذع يتفرع فروع وفروع . وهذا المبدأ اللغوي (الاشتقاق) اهم ظاهرة في العربية . ومن المؤسف ان الذين عنوا بالتأليف المدرسي في الثلث الاخير من القرن الحالي قللوا من أهمية الصرف ووضعوا الاهمية على النحو . ولكن طبيعة اللغة العربية الاشتقاقية تفرض علينا ان نتفهم مبادىء الاشتقاق . ودرس الاشتقاق شيق ممتع مفيد شريطة ان يدرس على طريقة منطقية كالتي نقترحها .

(ج) يجب ان يكون التوكيد في تدريس اللغة على لفظة « أنشىء » و « قس عليه » (١) لا على لفظة « أعرب » .

---

(١) كما فعل المرحوم خليل السكاكيني في كتبه المدرسية .

مما لا شك فيه ان مجرد اعطاء القاعدة لا يعين الطالب على الانشاء . فاننا مهما حرصنا على ان يتعلم الولد قاعدة صوغ الامر دون اللجوء الى التمارين ، الى الانشاء ، الى القياس ، فان الولد لن يتعلم صوغ الامر . ولكن اذا قلنا له : الامر من أكرمَ أكرِم وقس عليه صوغ الامر من هذه الافعال ... اذا قلنا له ان الامر من نظر انظر وقس عليه صوغ الامر من هذه الافعال ... فاننا نهيء ذخيرته اللغوية ومتى اصبحت ذخيرته اللغوية غنية عندها نستطيع ان نعطيه القاعدة .

ومما لا ريب فيه ان الاعراب كان يوماً صناعة ، وكان فناً في التخريج يرمي الى تنمية الملاحظة والادراك . ولكن مدرستنا الحديثة بغنى عن هذا العلم لتنمية الادراك ، اذ لدينا مواد أخرى تهدف الى ترتيب العقل وتنظيم التفكير . ولو ان هذا العلم – علم الاعراب – كان علماً منطقياً معقولاً لقبلنا به مادة لتنظيم الفكر – ولكن خذ اية ناحية من نواحي الاعراب تجد فيها مآخذ عديدة نبه اليها القدامى والمحدثون . في اعراب : « ايها القمر .. » لماذا لا نقول للتلامذة ان « ايها » و « ايتها » اداة لنداء الاسم الداخل عليه اداة التعريف وما بعدها منادى – وكفى الله المؤمنين القتال ! حسب الطريقة التقليدية يجب ان نقول : اي منادى بحرف النداء المحذوف تقديره يا ، وها للتنبيه والقمر عطف بيان على أي !!! وفي هذا تعسّف ظاهر .

ومما يلاحظ في صناعة الاعراب كثرة الاحاجي وشيوع الالغاز التي كان يتلهى بها مشايخ اللغة في العصور المتوسطة . فانهم كانوا يطلبون الى الولد ان يعرب ما لا تقره اساليب اللغة ، فيُطلب اليهم مثلاً ان يعربوا « جاء الذي ان اباه مؤمن » او « جاء الذي ان اباه مؤمناً كان » ثم ان هذا الولد اذا كتب عبارة بهذا التركيب الاعجمي السقيم لقال له المعلم : هذا ليس بعربي !

نحن نعلم ان عدداً كبيراً من مدرّسي العربية قد اقلعوا عن ارهاق الطالب بهذه الاحاجي وبهذه الافتراضات . ولكن صناعة الاعراب لا تزال مادة مطلوبة في البرامج . نحن نطلب ان يستعاض عن الاعراب بتحليل الجملة المفيدة الى العناصر التي تتركب منها : الموضوع وقيوده والخبر وقيوده وكفى .

(د) يجب ان يكون تدريس التركيب (النحو) قائماً على الجملة المفيدة :

وكل ما ليس كلاماً مفيداً لا يدخل في نطاق دراسة اللغة . والجملة المفيدة هي التي تتألف من شيء نتكلم عنه ومن شيء آخر نقوله عن المتكلم عنه (وهما المبتدا والخبر او المسند والمسند اليه ، ونحن نقترح الغاء هذه المصطلحات لانها غير واضحة) . فان هذه الجمل :

نمت نوماً هانئاً ليلة امس .
ذهبنا لزيارة خالد فما وجدناه .
صغارنا يشكون من قلة الحدائق .
ما اجمل الجوّ في بيروت .
ان السماء صافية .
ليت هنداً انجزتنا ما تعد .

مركبة من شيء نتكلم عنه ، وهو الموضوع ، ومن شيء نقوله عن الموضوع وهو الخبر . الموضوع ، أي موضوع الكلام في الجمل المار ذكرها على التتالي هو ، أنا ، نحن ، صغارنا ، الجوّ ، السماء ، وهند . والخبر هو الباقي من الجملة . هذا منطق وسواه تحذلق . هذا المنطق يفهمه طلابنا . ولكننا اذا قلنا لهم ان « ما » نكرة مبتدا ، والسماء اسم ان ، وهند اسم ليت والجوّ مفعول به من اجملَ فاننا نسخر من افهامهم .

(ه) يجب ان يكون تعليم قواعد اللغة على اساس الفهم والافهام :

اعتبر هذا التعريف التقليدي لعلم النحو : « النحو علم باصول تُعرف بها احوال اواخر الكلم اعراباً وبناءً ، والغرض منه معرفة الاعراب الذي هو رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف » . ان قصر النحو على اواخر الكلم من جهة الاعراب

والبناء خطأ فاضح ، فان علامات الاعراب ، وان تكن ظاهرة من ظواهر اللغة ، لا تؤثر في المعنى . قد يكون لنشوئها عوامل اخرى تتعلق بترتيب الكلام في الجملة .

يجب أن يؤكد في تعليم قواعد اللغة قضية الفهم والافهام ، لأن اللغة فهم وافهام . واذا تخطينا هذه المرتبة نصل الى حقل الفن ، والفن خلق والفنان يخضع اللغة للتعبير عن خلقه .

على ضوء هذه المبادىء العامة نقترح وضع سلاسل متدرجة من جهة صعوبة المادة ومن جهة التوسع لا من جهة المبدأ . وبما أن هذا الكتاب ليس كتاباً في الصرف والنحو فاننا سنقتصر على ذكر المخطط العريض وبصورة موجزة ايجازاً كلياً . ذلك لاننا نأمل ان نطبق هذه النظرية عملياً باخراج كتاب في تعليم القواعد لينظر فيه الاساتذة .

تعليم اللغة — اية لغة — يتناول المراتب الثلاث الاساسية : مرتبة المفردات ومرتبة التركيب ومرتبة الاساليب التعبيرية . وكل جزء من السلاسل المقترحة يجب ان يتناول اللغة عامة تحت هذه الابواب الثلاثة ، ولكن طبعاً تكون الجرعة المعطاة للطلبة بالنسبة الى مدارك الطلبة واعمارهم .

مرتبة المفردات :

تدرس مفردات اللغة تحت الابواب الرئيسية التاليـــــة :

(ا) الاسماء (ب) الضمائر (ج) الافعال (د) الصفات (ه) الظروف (و) الأدوات .

ولا يسعنا ان نذكر مخطّط كل باب من هذه الابواب ، انما على سبيل المثال نذكر كيف يجب ان يُدرّس الفعل وكيف يجب ان تدرس الصفة ، وسنذكر مثالاً على طريقة تعليم الادوات .

باب الفعل :

يبحث الفعل حسب المخطط التالي (ا) الفعل الثلاثي (الجذر) وما يشتق منه من اوزان جديدة لخلق معانٍ جديدة (ب) الزمن : صيغتا الماضي والحاضر ، المستقبل وصيغة الأمر – الأمر اثباتاً ونفياً والأمر للغائب . (ج) المجهول . (د) المشتقات من الفعل : يشتق من الفعل اسمٌ (وهو المصدر حسب المصطلح القديم) واسم الفاعل والمفعول واسم المكان والزمان واسم مصدّر بميم . (ه) الحالات الاعرابية للفعل (من بناء الماضي ورفع المضارع ونصبه وجزمه) .

وكل هذا على طريقة المثال والقياس .

باب الصفة :

تبحث الصفة حسب المخطط التالي : (ا) تعريف الصفة . (ب) نماذج من الأوزان التي تأتي عليها الصفات . (ج) تأنيث

الصفة وتذكيرها . (د) تثنية الصفة وجمعها . (هـ) مطابقة الصفة للموصوف . (و) المفاضلة او التفضيل (غني ، اغنى من ، اغنى الناس . مجتهد ، اكثر الناس اجتهاداً) . (ز)الحالات الاعرابية للصفة . وكل ذلك بالمثل والقياس .

مثال على درس الادوات :

في الساعة التي اكتب فيها هذه الفقرة من هذا الكتيب يدرس ابني رضا موضوع الاستثناء . وقد جاءني اكثر من مرة يقول : « شيء يدوّخ الراس ، شيء بزهّق الروح ! » . فانه حائر في امر هذه الادوات : بعضها اسماء معربة ، وبعضها حروف ، وبعضها افعال . المستثنى مرفوع ومنصوب ومجرور ! يا بابا متى وكيف ؟ واخيراً يفاجئني بهذا السؤال من كتابه النحو الواضح (١) :

« كوّن ثلاث جمل تشتمل كل منها على مستثنى بغير ، بحيث تكون كلمة غير في الاولى واجبة النصب وفي الثانية جائزة النصب والاتباع للمستثنى منه ، وفي الثالثة معربة حسب ما يتطلبه العامل الذي قبلها » .

اما انا فلم استطع ان اكوّن له هذه الجمل بهذه السرعة المطلوبة . واظن ان غيري — باستثناء معلمي الصرف والنحو

---

(١) الجزء الثالث ص ٨٣ — ٩٤ .

الذين مهمتهم ان يحفظوا هذه الامثلة غيباً — سيجد بعض الصعوبة في انشاء هذه الجمل . فكيف بولد « رأسه دايخ وروحه زهقانه ؟ » اقتراحنا ان تكون هذه الكلمات التي يستثنى بها ادوات . كيف تدرس الادوات ؟

نقترح ان تدرس كل اداة (او كل مجموعة ادوات من ذات الصنف) في باب خاص ، كأن يكون هنالك باب خاص لِ « حتّى » وباب لِ « غير ») وباب لِ « حاشا وخلا » ... الخ . وتُدرس الأدوات تحت ثلاث نقاط فقط :

(ا) طريقة استعمالها في التركيب .
(ب) المعنى الذي تؤديه في التركيب .
(ج) الأثر الاعرابي الذي تتركه في الكلمة التي بعدها اذا كان هنالك من أثر .

وكل ذلك على طريقة المثال ، ويطلب الى التلميذ ان ينشىء جملاً على هذه الامثلة .

بقيت هنالك مسألة الجوازات . وكنا نتمنّى لو ان المجامع اللغوية العلمية تناولت هذه القضية . فانها تستطيع ان ترجّح رأياً وتأخذ به وتشجع الناس على استعماله وتهمل الباقي . ولكن عند اعطاء الامثلة التي يجب ان يتعلمها الطالب لينشىء على مثالها نقول له في حاشية ان في اللغة « شواذ » وفي اللغة « جوازات » تعلّم هذا الآن .

مرتبة التّركيب (النحو) :

وموضوع التّركيب الجملة المفيدة . فلا يدخل في هـــذه المرتبة افتراضات او احاج والغاز . اللغة للافصاح لا للتلهي . وما دام التّركيب يبحث في الجملة وعناصرها فيكون مخططنا المنطقي لهذه المرتبة قائماً على الجملة ، الجملة البسيطة والجملة المركبة ، لا على الجملة الاسمية والفعلية ، اذ اننا نعتبر الجملة المفيدة واحدة سواء بدأت بفعل او باسم .

كل فصل من فصول هذا الجزء من قواعد اللغة يبدأ بعنوان الجملة :

الجملة البسيطة وركناها الاساسيان : موضوع الجملة والخبر عن الموضوع مثل قام زيدٌ والمعلم ذهب الى بيته . الجملـــة المركبة ، الجملـة المنفية « كيف يتم النفي في العربية » الجملـة الاستفهامية « كيف نستفهم ؟ » الجملة الشرطية ، الجملة التي فيها استثناء ، الجملة التي فيها موصول ، الجملة اذا دخل عليها إنّ ... كان ... اوشك ... الخ .

بهذه الطريقة يرسخ في عقل الطالب ان بحث التّركيب(النحو) يتناول الجملة التامة المفيدة للافصاح والتعبير فلا يعود يفتكر ان النحو ضمة وفتحة ظاهرة او مقدّرة وشواذات ليس لها حصر .

مرتبة الاسلوب (الانشاء الجميل) :

وهذه اهم مرتبة في تعليم اللغة . هي بمثابة المختبر لتطبيق القواعد ، القواعد المتعلقة بالمفردات وبسلامة التركيب . هذه مرتبة خطيرة فانها تتناول الفكر وجمال الفكر والتعبير عنه بالاسلوب الجميل . اذن مشاكل تدريس الانشاء لا تقلّ خطورة عن مشاكل تعليم القواعد . ولكن مما يدعو الى التشجيع ان هنالك تقدّماً محسوساً في هذا الحقل كما يبدو في الكتب الموضوعة بين ايدي الطلبة . ولكن مجال التحسين واسع(١) .

هذه الكتب المقترحة يجب ان تكون من وضع معلمين بارعين موهوبين مارسوا مهنة التعليم زمناً،ويجب ان يكون لهم المامهم بعلوم التربية الحديثة . واهمّ من هذا كله ان يكونوا ممن يتحسس هذه المشاكل .

* * *

---

(١) وقد نشرنا في مجلة الابحاث التي تصدرها الجامعة الاميركية مقالا عنوانه « البيان والأدب من مشاكل التدريس » جئنا فيه على بعض المآخذ التي نأخذها على الاساليب المتبعة ونقترح بعض الاقتراحات البناءة فليراجع (السنة الخامسة ، الجزء الثالث ، ايلول ١٩٥٢) .

نظريات في اللغة

للمؤلف

١ — معجم الالفاظ العامية في اللهجة اللبنانية ، منشورات كلية العلوم والآداب ، الجامعة الاميركية في بيروت . سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة التاسعة عشرة مطبعة جونية .

٢ — الامثال العامية (مترجمة الى الانكليزية) مجلدان ، منشورات كلية العلوم والآداب ، الجامعة الاميركية في بيروت ، سلسلة العلوم الشرقية ، الحلقة الخامسة والعشرون ، مطبعة جونيه ، ١٩٥٣ .

٣ — Essentials of Arabic, a manual for teaching and Colloquial Arabic. Junieh Press 1953. Revised, simplified, and enlarged (1959).

٤ — تبسيط قواعد اللغة العربية وتبويبها على اساس منطقي جديد ، جونية ١٩٥٢ .

٥ — اسماء الاشهر العربية وتفسير معانيها ، دراسة فيلولوجية تاريخية . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٥٢ .

٦ — نحو عربية ميسرة ، دار الثقافة في بيروت ١٩٥٥ .

٧ — اسمع يا رضا ! جونية ١٩٥٦ ، طبعة ثانية مضاف اليها . جونية ١٩٦٨ .

٨ ـ اسماء القرى والمدن اللبنانيـــة وتفسير معانيهـــا ، مع مقدمة تاريخية ، منشورات كلية الآداب والعلوم ، سلسلة العلوم الشرقية، الحلقة السابعة والعشرون ، جونية ١٩٥٦ .
٩ ـ اللهجات واسلوب دراستها ، منشورات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية . القاهرة ١٩٥٥
١٠ ـ يسروا اساليب تعليم العربية ، هذا ايسر، جونية ١٩٥٦.
١١ ـ حضارة في طريق الزوال ، القرية اللبنانية ، جونية ١٩٥٧ .
١٢ ـ تبسيط قواعد اللغة العربية على اسس جديدة . دار الكتاب ، بيروت ، ١٩٥٩ .
١٣ ـ الخط العربي ، نشأته ومشكلته . جونية ١٩٦١ .
١٤ ـ الفكاهة عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ .
١٥ ـ احيقار ، حكيم من الشرق الادنى القديم ، جونيـة ١٩٦٢ .
١٦ ـ ملاحم واساطير من اوغاريت (رأس الشمرا) جونية ١٩٦٦ .
١٧ ـ ملاحم واساطير من الأدب السامي القديم ، دار النشر للنهار ، بيروت ١٩٦٧ .
١٨ ـ المدخل الى اللغة العبرية .

سلسلة الألسنية

صدر :

رقم العدد	العنوان	المؤلف
١	الألسنية العربية (مقدمة ــ الأصوات ــ المعجم ــ الصرف)	ريمون طحّان
٢	الألسنية العربية (النحو ــ الجملة ــ الأسلوب ــ خاتمة).	ريمون طحّان
٣	نظريات في اللغة	أنيس فريحة

يصدر قريباً :

علوم الصوت والأصوات العربية .

علوم الدلالة والليكسيكولوجيا والمعجم العربي .

المورفولوجيا العامة واللغة العربية .

... ...

نظريات في اللغة

ما هي اللغة ؟ الواقع أن اللغة أكثر من مجموعة أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة للفكر أو تعبيراً عن عاطفة . اللغة جزء من كياننا البسيكولوجي الروحي . وهي عملية فيزيائية اجتماعية بسيكولوجية على غاية من التعقيد .

والعربية التي سنعالج تطورها كتابةً ولغةً وتعبيراً هي اللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم ، واللغة الأدبية التي نُظم بها الشعر الجاهلي .

وها قد مرَّ على تدوين قواعد اللغة العربية ما يَنوف على الألف سنة ولمّا يطرأ عليه تعديل بَعْد يقربه الى الفهم أو يحببه الى النفس ... ونحن لا ننحي باللائمة على المؤلفين اللغويين القدامى لأنهم خدموا أغراض عصرهم ، إنما نلوم المحدثين والمعاصرين لالتزامهم [illegible] التي أخذ بها المتقدمون ، لاتباعهم الأسلوب ذاته في التأليف .

أنيس فريحة

dar al-kitab allubnani

…RSITY LIBRARY